(٤)

حرائق القاهرة في عصر المماليك

(٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م)

د. طه عبد المقصود عبد الحميد حسنين أبو عُبيَّة
مدرس بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

مقدمة:

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله ﷺ. أما بعد:

فقد شهدت القاهرة في عصر دولة المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م) وقوع العديد من الحرائق، الكبيرة منها، والصغيرة. وكانت هذه الحرائق تقع - غالبا - في الأسواق، والمراكز التجارية، وفي مساكن العامة، وبيوت الخاصة، وبعض المدارس، ودور العبادة، والمرافق العامة، كما أطالت بعض المؤسسات والمنشآت الحكومية.

وقد عُني المؤرخون يرصد هذه الحرائق، والبحث عن أسبابها ودوافعها، وتسجيل نتائجها وآثارها، ووسائل وطرق مكافحتها. وجاء تناولهم لبعضها بإيجاز وإجمال، ولبعضها الآخر بإسهاب وتفصيل، حسب المعلومات التي توفرت لديهم، وبحسب قوة الحريق وحجمه، ومدي تأثيره في حياة الناس والمجتمع.

ومن المؤكد أن هذه الحرائق – في أكثرها - كان لها آثارها الضارة علىٰ الحالة الاجتماعية، والاقتصادية، والعمرانية، لسكان القاهرة، لاسيما طبقة العامة منهم، لأنهم كانوا أول المتضررين، ولكثرة الحرائق التي أصابت بيوتهم وممتلكاتهم. كما أن بعض منشآت الدولة كانت تصاب بأضرار بالغة، وخسائر فادحة، من الحرائق التي تَطالُها.

وبالرغم من كثرة الدراسات التي كُتبت حول الكوارث الطبيعية، والأزمات الاقتصادية، والظواهر الاجتماعية، التي عاشها المجتمع المملوكي في مصر عامة، وفي عاصمتها القاهرة خاصة، فإننا لم نجد – بعد البحث والتحري، وفي حدود اطلاعنا – دراسة تُعني برصد موضوع الحرائق، وبيان أسبابها، وآثارها، ووسائل مكافحتها علي المستويين الرسمي والشعبي. ومن هنا جاءت هذه الدراسة التاريخية، مُركِّزة علىٰ رصد هذه الظاهرة المجتمعية، ومكتفية بحدود مدينة القاهرة، وضواحيها، في عصر سلاطين المماليك. واخترنا لها العنوان الآتي:

حرائق القاهرة في عصر المماليك

(٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م)

ويمكن دراسة هذا الموضوع في ثلاثة مباحث، ويعقبها خاتمة:

المبحث الأول: أسباب الحرائق في القاهرة المملوكية.

المبحث الثاني: آثار الحرائق علىٰ المنشآت العمرانية، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسكان القاهرة.

المبحث الثالث: دور الدولة وعامة السكان في مواجهة الحرائق.

الخاتمة: وتتضمن ملخصًا للدراسة، وأهم نتائجها.

هذا، وقبل البدء نؤكد هنا علىٰ أن مساحة مدينة القاهرة قد اتسعت في عهد سلاطين المماليك عما كانت عليه في الفترتين الفاطمية والأيوبية، وبلغت أقصي اتساع لها في عهد السلطان المملوكي محمد بن قلاوون[١]، حيث يُعتبر عصره من أزهي العصور في مصر من الناحية المعمارية، «ولم يهتم أحد من الملوك السابقين عليه، ولا اللاحقين به مثله في أمر العمارة والبناء»[٢]. ولكثرة المنشآت المعمارية التي تحققت في عهده – وعهود السلاطين المماليك من بعده – اتصلت مصر (الفسطاط)

(١) تولىٰ السلطان الناصر محمد بن قلاوون ثلاث مرات؛ الأولىٰ (٦٩٣-٦٩٤هـ/ ١٢٩٣-١٢٩٤م)، والثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/ ١٢٩٩-١٣٠٩م)، والثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣١٠-١٣٤٠م).

(٢) علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة (١/ ٩٧).

بالقاهرة، حتىٰ صارت بلداً واحدًا، حددها المقريزي طولًا وعرضًا « من مسجد تبر، إلىٰ بساتين الوزير قِبلي بركة الحَبَش (طولاً)، ومن ساحل النيل إلىٰ جبل المقطم (عرضا). ويدخل في هذا الطول والعرض بركة الحَبَش، وما دار بها، والرصد، ومدينة الفسطاط، والقرافة الكبرىٰ والصغرىٰ، وجزيرة الروضة، ومنشأة المهراني، وقطائع ابن طولون، وخط جامع ابن طولون، والرُّمَيلة تحت القلعة، والقُبيبات، وقلعة الجبل، إلىٰ قبة النصر، والقاهرة المُعزية، والحُسَينية، والريدانية، والخندق، وكوم الريش، وجزيرة الفيل، وبولاق، والجزيرة الوسطىٰ المعروفة بجزيرة أروىٰ، .... والأحكار التي فيما بين القاهرة، وساحل النيل، وأراضي اللوق، والخليج الكبير الذي تسميه العامة بالخليج الحاكمي، والحبانية، والصَّليبة، والتبَّانة، ومشهد السيدة نفيسة، وباب القرافة، وأرض الطبَّالة، والخليج الناصري، والمَقس، وغير ذلك»[١].

ويؤكد ابن فضل الله العمري (المتوفى ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) – وكان معاصرًا للملك الناصر – علي أن حاضرة مصر في وقته كانت تشتمل علىٰ ثلاث مدن عظام، صارت كلها مدينة واحدة، هي الفسطاط، والقاهرة، وقلعة الجبل[٢].

ويقول القلقشندي (المتوفى٨٢١هـ/ ١٤١٨م) - مؤكدًا علىٰ هذا الأمر أيضًا -: «ولم تزل القاهرة في كل وقت تتزايد عمارتها، وتتجدد معالمها، خصوصًا بعد خراب الفسطاط، حتىٰ صارت علىٰ ما هي عليه في زماننا؛ من القصور العالية، والدور الضخمة، والمنازل الرحيبة، والأسواق الممتدة، والمناظر النزهة، والجوامع البَهِجة، والمدارس الرائقة، والخوانق الفاخرة، مما لم يسمع بمثله في قطرٍ من الأقطار، ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار»[٣].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٢/ ٢٠٤). وسوف نشير إلىٰ هذا المصدر في بقية الحواشي باسم (الخطط).

(٢) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ص٢٠، ٧٩).

(٣) القلقشندي: صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا (٣/ ٣٧٠).

ومن هنا فإن تناولنا للحرائق التي شهدتها القاهرة المملوكية سيكون في إطار هذا الاتساع والامتداد العمراني، فيما يمكن الاصطلاح عليه – من جانبنا- بـ «القاهرة الكبرىٰ»، ويدخل فيها الأحياء التي نشأت خارج أسوارها وأبوابها القديمة، وحدودها الأولىٰ، وامتدت إلىٰ شاطئ النيل، وجزيرة الروضة، واللوق، والتحمت بالفسطاط، ومنطقة ابن طولون، وامتدت إلىٰ قلعة الجبل، والقرافة، وغيرها من الأحياء والمناطق[١].

۞ ۞ ۞

---

(١) تنبيه: سأكتفي – في توثيق المعلومات بالهوامش – بذكر اسم المؤلف، وعنوان الكتاب، والجزء والصفحة. أما بيانات النشر والطباعة فهي مثبتة في قائمة المصادر والمراجع. باستثناء البحوث المنشورة في الدوريات العلمية، ورسائل الماجستير والدكتوراه التي لم تنشر، فسأثبت بياناتها كاملةعند النقل منها.

المبحث الأول
أسباب الحرائق في القاهرة المملوكية

عند استقراء أحداث الحرائق التي وقعت في مدينة القاهرة وضواحيها في عصر المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م) يتضح أنها تعود إلىٰ أسباب عديدة، ومتنوعة، فبعضها وقع بسبب الصراعات السياسية التي وقعت بين الأمراء المماليك؛ من أجل الوصول إلىٰ السلطة والنفوذ، وما ينتج عن ذلك من حرق وتخريب. وبعضها يتولد عن الفوضىٰ والاضطرابات العنيفة التي يُحدثها طوائف من «المماليك الجلبان» لنصرة أمرائهم، أو للسلب والنهب. ومنها ما يقع بسبب التعصب الديني وما ينتج عنه من فتن تؤدي إلىٰ حالة من الفوضىٰ، يتخللها تخريب وحرق للمنشآت والممتلكات. إضافة إلىٰ أسباب أخرىٰ، مثل الظواهر الطبيعية، والأخطاء البشرية. كما يوجد عدد من الحرائق صمتت المصادر عن بيان أسبابها، وتكتفي فقط بالتأريخ للحريق، مع ذكر بعض آثاره. وفيما يأتي عرض لهذه الأسباب.

(١) الصراعات السياسية بين الأمراء المماليك:

اشتهرت دولة المماليك بكثرة الاضطرابات والصراعات السياسية المستمرة، بين كبار الأمراء المماليك وأتباعهم، للوصول إلي سُدَّة الحكم، والانفراد بالسلطة والنفوذ. وتفسير هذه الظاهرة التاريخية هو «أن المفاهيم السياسية لهذه الدولة – والتي جعلت العرش من حق الجميع – قد أدت إلىٰ تنافس أمراء المماليك علىٰ عرش السلطنة الذي اعتبروه حقًا للأقوىٰ»[(١)]. وعلىٰ الرغم من تنظيمهم المحكم لإدارة البلاد، ووضع نظم ورسوم للحكم والإدارة دقيقة وقوية، فإنهم لم يضعوا قواعد ثابتة لتولِّىٰ الحكم؛ فالأمراء جميعًا متساوون، والمُلك يكون للأقوىٰ حنكةً،

---

(١) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي: عصر سلاطين المماليك (ص ٤٧)، بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك (ضمن موسوعة: الحضارة العربية، العدد ١٦، المعارف، سوسة، تونس، ١٩٩٤م ص ٧).

والأكثر أتباعا[1]. وقد أدىٰ ذلك إلىٰ وقوع كثير من الفتن والاضطرابات والثورات، « وبين الآونة والأخرىٰ كان بعض الأمراء الطموحين يترجمون طموحهم إلىٰ عمل عسكري في شوارع القاهرة التي تتحول إلىٰ ميدان قتال بين جيوش المماليك المتحاربة، وقد تمتد عدة أيام تضطرب أثناءها الأحوال، وتموج البلاد بالفوضىٰ والفزع، وسرعان ما تخلو الطرقات من روادها، وتقفر الأسواق، ويهجرها الباعة، لتكون ميدانًا لقتال فرسان المماليك ومعاركهم الدموية»[2].

وقد تولد عن ذلك كله - من بين ما تولد من المفاسد، والشرور، والأزمات الاقتصادية والاجتماعية – اندلاع العديد من الحرائق في القاهرة، احترق أثناءها الكثير من بيوت العامة والخاصة، والمنشآت الدينية، والتجارية، وأحدثت حالة من الذعر بين السكان. والأمثلة علي ذلك في المصادر التاريخية كثيرة، بلغت حدَّ التواتر. فمن أبرزها [3] – مما له علاقة بموضوع الدراسة -:

في مطلع دولة المماليك سعىٰ «عز الدين أيبك»[4] إلىٰ تثبيت حكمه، ومن أجل ذلك تخلص من أقوىٰ منافسيه في حكم مصر، وهو «فارس الدين أقطاي»[5]، فدبر

(١) إبراهيم حسن سعيد: الجيش في عصر المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧٣م، ص ١٧٧ بتصرف يسير.

(٢) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي: عصر سلاطين المماليك (ص ٥١).

(٣) للاطلاع علىٰ مزيد من هذه الأحداث، وما نتج عنها من حرائق يراجع: المقريزي: السلوك (ج٣ ق١ ص٣٨٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٠/ ٣٩ - ٤٦)، (١١/ ١٧٤-١٨٠، ٣٣٧- ٣٣٨)، ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور (ج١ ق١ ص ٤٩١، ٤٩٣)، (ج١ ق٢ ص ٢٥٧، ٥٦٠)، ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر (١/ ٢١٠).

(٤) عز الدين أيبك، التركماني، الصالحي. أول سلاطين المماليك البحرية في مصر والشام. كان مملوكا للصالح نجم الدين، وأعتقه، فصار من جملة الأمراء عنده، وتولي السلطنة بعد زواجه من شجر الدر (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، وقتل في ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م (الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٩٨ – ١٩٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/ ٣-٤١).

(٥) أقطاي بن عبد الله الجمدار، الأمير فارس الدين، الصالحي، النجمي، التركي (ترجم له ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ٢/ ٥٠٣ -٥٠٤).

قتله (سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م)، وألقىٰ برأسه من أعلىٰ سور القلعة[١] إلىٰ «الأمراء البحرية»[٢]، فدب الذعر في قلوبهم، وقرروا الهروب ليلًا إلىٰ الشام بعد قتل أستاذهم، وكانوا نحو سبعمائة فارس[٣]، لكنَّ الأمير «عز الدين أيبك» حاول الإمساك بهم، فأغلق أبواب القاهرة، ومن العادة أن تُغلق بالليل، فقاموا بحرق باب «القرّاطين» حتىٰ سقط من الحريق، وخرجوا منه هاربين، وهذا الباب هو الذي سُمِّيَ بعد ذلك «الباب المحروق»[٤].

وفي يوم الأربعاء (الحادي عشر من شهر المحرم، سنة ٦٩٤هـ/ ٣٠ نوفمبر من ديسمبر١٢٩٤م) خرج نحو ثلاثمائة من «المماليك الأشرفية» من القلعة في جنح الليل، وهجموا علىٰ إصطبلات الناس تحت القلعة، وأخذوا خيولهم، ونهبوا ما قدروا عليه، ثم توجهوا إلىٰ «باب السعادة» – أحد أبواب القاهرة – فأحرقوه، ودخلوا دار الوزارة لينضم إليهم مَن فيها من المماليك، فلم يوافقوهم، ثم قصدوا سوق

---

(١) **قلعة الجبل:** أنشأها الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م، علي قطعة مرتفعة منفصلة من جبل المقطم، شرقي القاهرة، وأتمها الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م، وأنشأ بها الدور السلطانية، واستمرت منذ ذلك الوقت دار مملكة مصر، ومقراً للحكم، حيث كان بها الدور السلطانية، ودواوين الحكومة. وقد أفاض المقريزي في وصف مرافقها، وأسوارها، وأبوابها (المقريزي: الخطط ٣/ ٣٥٧ – ٣٥٨، ٣٩٩ وما بعدها). وسيأتي مزيد تعريف بها (ص).

(٢) **الأمراء البحرية:** عرفوا بذلك نسبة إلي بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم العسكرية في جزيرة قلعة الروضة التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب. وهو أول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم. وقد ملكوا الديار المصرية سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، وعرفت دولتهم بدولة المماليك البحرية، ومؤسسها هو عز الدين أيبك، وامتدت إلي سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م. وآخرهم هو السلطان المنصور علاء الدين عليّ بن شعبان بن حسين. وأعقبتها دولة المماليك الجراكسة (المقريزي: الخطط ٣/ ٤١١ – ٤١٢، ٤٢٠).

(٣) كان من بينهم: بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي، وسنقر الأشقر، وغيرهم (المقريزي: السلوك لمعرفة دور الملوك ج١ ق٢ ص٣٩٠).

(٤) المقريزي: السلوك (ج١ ق٢ ص٣٩٠-٣٩١)، الخطط (٢/ ٢٤٤ – ٢٤٥)، ابن دقماق: نزهة الأنام في تاريخ الإسلام (ص ٢١٩-٢٢٠)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق١ ص ٢٩١- ٢٩٢). وذكر ابن تغري بردي الحدث في النجوم الزاهرة (٧/ ١٠– ١٢)، والمنهل الصافي والمستوفيبعد الوافي (٢/ ٥٠٤). ولم يشر إلي وقوع الحريق.

القاهرة، وفتحوا الحوانيت، وأخذوا السلاح، ووقفوا تحت القلعة احتجاجًا علىٰ ظهور «حسام الدين لاجين»[1] وعدم قتله، فهو الذي قتل أستاذهم «الأشرف خليل»[2]، فركب الأمراء الموجودون في القلعة، وقاتلوهم، فلم يثبتوا، وتفرقوا، ثم قبض عليهم ونُكِّل بأكثرهم بأنواع من التنكيل، وصُلب بعضهم علىٰ باب زُويلة[3].

ولمَّا تولي «فرج بن برقوق» الحكم وهو صغير السن – بعد وفاة أبيه السلطان برقوق (سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م) – رأي كبار الأمراء المماليك أن الفرصة قد سنحت لتولي السلطة في مصر، فبدأت المنافسات والمنازعات تدبُّ بينهم، وافترق الأمراء – ومعهم مماليكهم – إلىٰ فريقين؛ فرقة مع الأتابك «أيتَمُش»، وفرقة مع الأمير «يشبَك الشَّعباني»[4]، ووقع القتال بينهما، وتحولت القاهرة إلي حالة من الفوضىٰ، تَخلَّلتها

---

(١) حسام الدين بن عبد الله المنصوري. من ملوك دولة المماليك البحرية بمصر والشام. شارك في قتل الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون سنة ٦٩٣ه/ ١٢٩٣م، وتولىٰ السلطنة عام ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م، بعد أن خلع الملك العادل كتبغا، ثم قُتل علىٰ يد بعض المماليك الأشرفية في ربيع الآخر عام ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م (ابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ١/ ٢١١، ابن إياس: بدائع الزهور ج١ ق١ ص٣٩٤-٤٠٠).

(٢) الأشرف خليل بن قلاوون الصالحي. تولىٰ سلطنة مصر والشام سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م. قاتل الصليبيين، واسترد عددًا من المدن، وطردهم من جميع بلاد الشام. وكان شجاعا، مهيبا عالي الهمة، جوادا، وله آثار عمرانية. وأباد جماعة من كبار الدولة. قتله بعض المماليك غيلة بمصر سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م (ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ١/ ٤٠٦-٤٠٧، ابن إياس: بدائع الزهور ج١ ق١ ص٣٧٣-٣٧٧).

(٣) المقريزي: السلوك (ج١ ق٣ ص٨٠٥)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٨/ ٤٨) ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق١ ص ٣٨٥). ولم يشر ابن إياس إلي وقوع الحريق بباب سعادة.

<u>باب زويلة:</u> سمي باسم قبيلة من البربر الواصلين مع جوهر الصقلي من المغرب. بناه أمير الجيوش بدر الجمالي (وزير الخليفة الفاطمي المستنصر بالله) سنة ٤٨٤هـ/ ٧٦٨م، ولا يزال موجودًا إلي اليوم علي رأس شارع المعز لدين الله الفاطمي، الذي يوصل بين هذا الباب وباب الفتوح. والعامة تسميه «بوابة المتولي»، حيث كان يجلس في داخله «متولي» حسبة القاهرة، لتحصيل الرسوم والعوائد من التجار، والنظر في المخالفات (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣ / ٣٧، وحاشية رقم ٢، ٦، علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ٣/ ٢٠٢).

(٤) يشبك الشعباني الظاهري: من كبار الأمراء في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق، ولاه «دَوادارًا»، و«أتابكية العساكر» بالديار المصرية، وصار هو مدبر الدولة، وبيده جميع أمورها من الولاية والعزل. وكان

أعمال النهب والحرق، قام بها المماليك والعامَّة في (العاشر من ربيع الأول، سنة ٨٠٢هـ/ ٩ نوفمبر ١٣٩٩م)[١]. وقد سجلها ابن تغري بردي - وكان معاصراً للحدث - فقال: «وامتدت الأيدي إلي بيوت الأمراء المنهزمين بالنهب، فنهبوا جميع ما كان فيه، حتىٰ نَهَبت الزُّعر[٢] مدرسة أَيتَمِش[٣]، وأخذوا جميع ما فيها، وأحرقوا الرَّبْع[٤] المجاور لها من خارج باب الوزير[٥]، ونهبوا جامع آق سُنقر[٦] المجاور لدار أيتَمش، وانتهكوا حرمة المصاحف بها، ثم نهبوا مدرسة السلطان حسن[٧] .... وصارت

أميراً جليلاً كريماً، وقوراً، سَيوساً، عالي الهمة. قُتل في ١٣ شهر ربيع الآخر، سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م (المقريزي: السلوك ج٣ ق٣ ص١٠١٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/ ٤٩٢، السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ١٠/ ٢٧٨).

(١) المقريزي: السلوك (ج٣ ق٣ ص ٩٨٧ – ٩٨٨).

(٢) **الزعر:** هم المفسدون، والرعاع، وقُطاع الطرق، واللصوص الذين يتعرضون للمارَّة، ويضايقون الناس في الطرقات، ويدخلون الخوف في قلوبهم. ويطلق عليهم أيضا: الشلاق. والشلق هو الضرب بالسوط (د. أنور محمود زناتي: معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، ص ٢٣٦).

(٣) مدرسة أيتمش (الأيتمشية): تقع تحت القلعة، برأس التبانة، أسسها صاحبها الأمير الكبير سيف الدين أيتمش البجاسي، ثم الظاهري (سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م) وجعل بها درس فقه للحنفية، وأنشأ بجانبها فندقا كبيرا، يعلوه ربع، ومن ورائها – خارج باب الوزير – حوض ماء للسبيل. (المقريزي: الخطط ٤/ ٢٥٩).

(٤) **الربع:** يطلق علىٰ «الدار»، و« ما حول الدار»، و« الحي »، وجمعها «رباع» و«أرباع» و«ربوع» (المعجم الوسيط: ربع). ويراد به المساكن المبنية فوق الحوانيت والدكاكين، لاستقبال التجار، يبيعون فيها، ويشترون، ويبيتون (محمد دهمان: معجم المصطلحات التاريخية في العصر المملوكي، ص ٨١).

(٥) **باب الوزير:** أحد أبواب القاهرة في سورها الشرقي. ينسب للوزير نجم الدين محمد بن علي بن شروين (وزير الملك الأشرف كجك بن قلاوون) المعروف بوزير بغداد. وإلي هذا الباب ينسب خط باب الوزير، وجبانة باب الوزير (تعليقات محمد رمزي علي النجوم الزاهرة ١٠/ ١٨٠، رقم ٢).

(٦) **جامع آق سنقر:** أنشأه الأمير شمس الدين آق سنقر بن عبد الله الناصري (سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م)، من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون. ويقع هذا الجامع قريبا من قلعة الجبل، فيما بين باب الوزير (أحد أبواب القاهرة) والتبانة (التابعة الآن لقسم الدرب الأحمر)، ولا يزال باقيا إلي اليوم تقام فيه الشعائر، ويعرف باسم جامع إبراهيم أغا مستحفظان (تعليقات محمد رمزي علىٰ النجوم الزاهرة، ١٠/ ١٧٩).

(٧) **مدرسة (وجامع) السلطان حسن** بن محمد بن قلاوون، المطلة علىٰ الرميلة، تجاه باب العزب من قلعة الجبل. استغرق في بنائها مدة ثلاث سنين (٧٥٧-٧٦٠هـ). وتعتبر من أهم العمائر الإسلامية من حيث الهندسة وفخامة البناء. قال المقريزي: «لا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكىٰ هذه

القاهرة في ذلك اليوم غوغاء، مَن غلَبَ علي شئ صار له، وقُتل في هذه الواقعة من الفريقين جماعة كبيرة من المماليك وغيرهم»[1].

وفي (شهر ربيع الآخر سنة ٨٤٢هـ/ سبتمبر ١٤٣٨م) شهدت مدينة القاهرة معركة كبري بين السلطان «الظاهر جَقْمَق»[2] والأمير «قَرقَماس الشعباني»[3] أتابك العسكر (قائد الجيش)، ومعه نحو ألف من الأمراء والمماليك السلطانية والأشرفية، وكثر فيها القتل والجراحات. وفي أثناء القتال حاول بعض المماليك الموالين لقرقماس اقتحام مدرسة السلطان حسن، ليتمكنوا من الرمي علي القلعة من أعلي

المدرسة في كبر قالبها، وحسن هندامها، وضخامة شكلها (المقريزي: الخطط ٣/ ١٣١، ٤/ ١٢١– ١٢٢، السيوطي: حسن المحاضرة ٢/ ٢٦٩).

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٢/ ١٨٩). المقريزي: السلوك (ج٣ ق٣ ص٩٨٨).

(٢) جقمق العلائي الظاهري، سيف الدين، أبو سعيد. السلطان (٣٤) من سلاطين دولة المماليك الجراكسة. تولىٰ السلطنة بعد يوسف بن برسباي (سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م) إلي أن توفي (سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)، «وكان - كما وصفه ابن إياس – ملكا عظيما، جليلا، ديِّنا، متواضعا، هدأت البلاد في أيامه من الفتن. وقال عنه ابن تغري بردي: «محاسنه أكثر من مساوئه» (ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدىٰ الأيام والشهور ١/ ٣٩٣-٣٩٤، ابن إياس: بدائع الزهور ٢/ ٢٩٩ – ٣٠٠).

(٣) الأمير سيف الدين قرقماس بن عبد الله، الشعباني، الناصري. ترقىٰ في المناصب حتىٰ تولي «حاجب الحجاب» في سلطنة الأشرف برسباي، وهابه الناس، ثم ولاه منصب «أمير سلاح»، فاستمر مدة، إلىٰ أن ترشح الأتابك جَقمق للسلطنة، وكان قرقماش حريصًا علىٰ حب الرئاسة، فلما رأىٰ أمر جقمق قد استفحل قام معه حتىٰ تسلطن، ثم وثب عليه بعد أربعة عشر يومًا من توليه، وقاتله، وانكسر وهرب، ثم ظهر وقبض عليه، وضربت عنقه بسجن الإسكندرية في شهر رجب، سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/ ٣١٩-٣٢٠).

المدرسة، فقاموا بحرق بابها، وصعدوا عليها، وركَّبوا المكاحل[1]، إلا أن المعركة انتهت بانتصار الظاهر جَقْمق، وإصابة «قَرقَمَاس» وهروبه[2].

وعقبَ وفاة «الظاهر جَقْمق» (سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) تولي الحكم ابنه السلطان الملك المنصور عثمان، وبعد أيام قليلة من ولايته عصاه أمراء الجند، بقيادة الأتابك «إينال العَلَائي»[3]، لخلعه من السلطنة، وشهدت القاهرة قتالاً عنيفًا بين الفريقين في ميدان الرملة، دام سبعة أيام متوالية، قتل فيها من الناس والعسكر ما لا يُحصي. وفي اليوم السابع (السبت ٧ ربيع الأول ٨٥٧هـ/ ١٧ مارس ١٤٥٣م) قام أصحاب الأمير «إينال» بإشعال النيران في البيوت التي بجوار الميدان، فتعلقت النار فيهم، حتىٰ وصلت إلا سقف المسجد من «سبيل المؤمني»[4]، وأحرقته عن آخره، وكان بسطحه جماعة كبيرة من مماليك السلطان عثمان، فنزلوا عنده، واستطاع أصحاب الأمير «إينال» هدم سور الميدان، والدخول إليه، فأدي ذلك إلي تراجع مماليك السلطان

---

(١) **المكحلة:** استعملت اسمًا للمدفع، حيث يوضع فيه كحل البارود، مع فتيل صغير لينفجر، ويقذف القذيفة علىٰ الهدف. وما زالت البندقية تسمىٰ عند المغاربة بالمكحلة حتىٰ عصرنا هذا (محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ١٤٣).

(٢) المقريزي: السلوك (ج٤ ق٣ ص ١٠٩١ - ١٠٩٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٥/ ٢٧١) ابن إياس: بدائع الزهور (٢/ ٢٠١).

(٣) الأشرف إينال، أبو النصر، سيف الدين العلائي، الظاهري. جركسي الأصل. ترقَّىٰ في الخدمة العسكرية إلىٰ أن أصبح أتابكًا (قائدا عاما للجيش) في أيام السلطان الظاهر جقمق (سنة ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م)، ولما توفي جقمق، وتولىٰ ابنه عثمان خلعه أمراء الجيش، ونادوا بسلطنة إينال، وتلقب بالملك الأشرف، وقام بأعباء الحكم بحكمة وعقل، وتوفي سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م (ابن إياس: بدائع الزهور ٢/ ٣٩، ٦٤، السخاوي: الضوء اللامع ٢/ ٣٢٨).

(٤) **سبيل المؤمني:** ينسب إلي الأمير سيف الدين بكتمر بن عبد الله المؤمني. أنشأه سنة ٧٦٥هـ، وأنشأ بجواره مصلاه، تحت القلعة بطرف ميدان الرميلة، أول شارع السيدة عائشة حاليا، ولا تزال بقاياها قائمة (تعليقات محمد رمزي علي النجوم الزاهرة ١٢/ ١٦١، ٣٢٨).

وهزيمتهم، والقبض علي السلطان نفسِه وسَجنِه بالإسكندرية، وبويع لإينال بالسلطنة[1].

(٣) ثورات المماليك الأجلاب وفسادهم:

كان السلاطين المماليك البحرية (٦٤٨–٧٨٤هـ/ ١٢٥٠- ١٣٨٢م) يعتمدون علي جلب المماليك وهم صغار في السن، ثم يتولون تربيتهم تربية خُلُقية ودينية قوية، وتدريبَهم علي كافة فنون القتال والفروسية. وكان من نتيجة هذه التربية الصارمة طاعة المماليك وولاؤهم لأستاذهم الذي اشتراهم، وربَّاهم، والإخلاص والانتماء له، حتىٰ بعد وفاته[2]. وهؤلاء لم يقوموا بأية أحداث شغب أو ثورة علي السلطان في عصر «المماليك البحرية» إلا نادراً[3].

وهذه التربية الصارمة ما لبثت أن تعرضت للإهمال في عصر المماليك البُرجية / الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م)، فتم شراء المماليك وهم كبار، لأغراض الحروب، بعد أن تكونت شخصيتهم، وأُهمل شرط صغر السن منذ عهد السلطان فرج بن برقوق (٨٠١-٨٠٨هـ/ ١٣٩٩-١٤٠٥م). ولأنهم لم يتربوا التربية الدينية السليمة، كان من الصعب أن تتغير حياتهم، ويتعودوا علي الطاعة والنظام [4]. ونتيجة ذلك – كما يوضح المقريزي - « صارت المماليك السلطانية من أرذل الناس، وأدناهم، وأخَسِّهم قدراً، وأشحِّهم نفسًا، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم إعراضًا عن الدين»[5]. وهؤلاء هم الذين أُطلق عليهم «المماليك الجلبان»، أو

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ٤٩)، حوادث الدهور (١/ ٣٤٨- ٣٤٩)، ابن إياس: بدائع الزهور (٢/ ٣٠٤ – ٣٠٥)، ولم يأت عنده ذكر للحريق.

(٢) يراجع كلام المقريزي: الخطط (٣/ ٣٧٢ - ٣٧٣).

(٣) عثمان علي عطا: الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي (ص١٢٢).

(٤) إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك (ص٣٢)، أحمد عبد الرزاق أحمد: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك (ص ١٣٢).

(٥) المقريزي: الخطط (٣/ ٣٧٣).

«الأجلاب»، وكان معظمهم - عند شرائهم - في سن البلوغ أو الرجولة، وقد فقدوا روح الطاعة والنظام، ومالوا إلي التمرد والعصيان، وتفرقوا إلىٰ مجموعات وأحزاب تسعىٰ لمحاربة بعضها البعض، من أجل السلطة والثروة، مما جعلهم أداة هدم وتخريب، ومصدر قلق، وموطن شغب وفوضي في الدولة، وكانت لا تمر سنة علي هؤلاء «الجلبان» إلا وتقع فيها فتنة واضطراب بسببهم، ويكثر فسادهم ونهبهم للأموال والممتلكات العامة والخاصة، لدرجة أن «هجماتهم المتكررة علي الأسواق صارت أمرا مألوفـًا في الحياة اليومية»[1]، بل وصاروا خطراً يهدد السلاطين أنفسهم، بعدم تنفيذ أوامرهم، والاعتداء عليهم بالضرب، وتهديدهم أحيانا بالقتل، والمشاركة في عزل بعضهم، لمجرد تأخر رواتبهم ونفقاتهم. وقد استمروا علي هذه الحالة الغوغائية حتىٰ إلي أخريات العصر المملوكي، ففي (يوم الأحد، ٢١ صفر، سنة٩٢٠هـ/ ١٦ أبريل ١٥١٤م) كادوا يشعلون فتنة مع السلطان الغوري، إلا أنه تداركها قبل استفحالها، وعلق ابن إياس علي هذا الحدث فقال – مبرزاً ما جُبل عليه هؤلاء -: «وكانت المماليك الأجلاب عوَّلوا علي نهب بيوت الأمراء والمباشرين، ونهب أسواق القاهرة، وحرق البيوت»[2].

وقد رصدت المصادر المملوكية أخبار الفتن والثورات التي قام بها هؤلاء «الجلبان»، وما أحدثوه من اضطرابات، وما تولد عن ذلك من وقوع حرائق في المباني الحكومية، والمنشآت المدنية، كان لها تأثير بالغ السوء علي حياة الناس في القاهرة. ومن أبرز الأمثلة علىٰ ذلك[3]:

في يوم الأحد (٢١ جمادي الآخرة ٨٥٤هـ/ ٣١ يوليو ١٤٥٠م) - أي في آخر عصر الملك الظاهر جَقمَق – كثر شغب المماليك الجلبان بسبب حبس جماعة منهم

---

(١) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي: عصر سلاطين المماليك (ص٥١)

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور (٤/ ٣٦٩).

(٣) للاطلاع علىٰ مزيد من هذه الأحداث، وما نتج عنها من حرائق يراجع: ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ١٩٥، ٣٢٢)، (٤/ ١٢٣)، (٥/ ٨٢).

في «المقشرة»[1]، ورغبتهم في عزل «جوهر»[2] (مقدَّم المماليك)، وتسليم «أبي الخير النحاس»[3] (وكيل بيت المال) – وكان يتعامل مع الناس بتكبر، حتىٰ مع أصحاب المناصب والعلماء[4] – فثاروا علي الأمراء، وقاموا بغارة إلي جهة القلعة، ووقفوا تحت «الطبلخانات»[5] لانتظار «أبي الخير النحاس» عند نزوله من القلعة. فلما طال انتظارهم، وتحققوا إقامته بالقلعة «شق ذلك عليهم، واتفقوا علي نهب داره، فنزلوا من وقتهم إلي داره علي هيئة مزعجة، فوجدوا أبوابها مغلقة، وقد وقفت مماليكه بأعلىٰ الأبواب لمنعهم من الدخول، فوقع بين الفريقين قتال ساعة، ثم حرق المماليك باب داره التي في شارع (بين السُّورين)[6]، ودخلوا إلي باب أبي الخير،

---

(١) **سجن المقشرة**: يقع بجوار باب الفتوح، فيما بينه وبين جامع الحاكم بأمر الله، وكان لسجن أصحاب الجرائم، ويصفه المقريزي بأنه من أشنع السجون وأضيقها (المقريزي:الخطط ٣/ ٣٣٠).

(٢) جوهر بن عبد الله المنجكي، نائب مقدم المماليك السلطانية في عهد الملك الظاهر جقمق. أنشأ مدرسة تجاه مُصلىٰ المؤمني بالرميلة تحت قلعة الجبل، ثم عزل عن النيابة، وتوفي سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م. وكان حبشيًا (ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٥/ ٤٤).

(٣) زين الدين أبو الخير محمد بن (المُعلِّم) شمس الدين محمد بن (المُعلِّم) أحمد، المعروف بالنحاس، شهرة، وصناعة، ومكسبًا. كان رجلا من العامة، ثم تقرب إلىٰ الملك الظاهر جقمق، وتنقَّل في عدد من المناصب، وتولي نظر الكسوة، وناظر البيمارستان المنصوري، وناظر الذخيرة السلطانية، ووكيل بيت المال، « فلم يتحرك له سَعدٌ، بل صار كلما قام أقعده الدهر». وتوفي في المحرم، سنة ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م، بعد محنة كبيرة مرَّت به، حبسًا، ونفيًا، وضربًا، وإهانة، ومصادرة لأمواله وممتلكاته (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٦/ ٢١٠-٢١١).

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٥/ ٤٠٠).

(٥) **الطبلخانات:** من «طبل» العربية، و«خانه» بمعني البيت والدار، أي بيت الطبل. ويطلق علىٰ مخازن الطبول، والأبواق والصنوج النحاسية، وتوابعها من الآلات المعدة للنَّوْبة والمواكب السلطانية، والمراد بها ما نسميه في عصرنا موسيقي الجيش (القلقشندي: صبح الأعشىٰ ٤/ ٨ -٩، ١٣، حسن حلاق: معجم الألفاظ التاريخية الأيوبية والمملوكية والعثمانية، ص١٤٥، محمد أحمد دهمان: معجمال الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ١٤٣).

(٦) **بين السورين:** سماه المقريزي في (الخطط ٣/ ٤٦ – ٤٧) «خط بين السورين»، ويبدأ من حدّ باب الكافوري في الغرب إلىٰ باب سعادة، وبه صفان من الأملاك، ويقال لهذا الشارع (بين السورين)، تسمية للعامة بها فاشتهر بذلك. وذكر علي مبارك في (الخطط التوفيقية ٣/ ٧٥) أن هذا الشارع ابتداؤه من آخر

وفعلوا ما يطول الشرح في ذكره، من أخذهم الأقمشة، والأمتعة، والتحف، واستمرت النار تعمل في باب الدار حتىٰ اتصلت لعدة بيوت بجوارها، فاحترقت أماكن». ويواصل ابن تغري بردي رواية الحدث – وكان شاهد عيان له، وشارك في إطفاء الحريق – فيقول: « وتوجَّهتُ أنا وجماعة، ثم حضر والي القاهرة والشيخ علي المحتسب، حتىٰ قدرنا علي طفي النار بعد جهد كبير، وأغلقت بعض حوانيت القاهرة ، وكان يوما مهولاً»(١).

وقد لخص السخاوي هذه الحادثة بقوله: «امتُحن أبو الخير النحاس بحرق الأجلاب لبيته، ونهب ما يفوق الوصف، بحيث تعدَّي الضرر لجيرانه، بل وحصل الاسترسال لغير ذلك، وآل أمره إلي نفيه بعد مزيد إهانته»(٢).

ومن الحرائق الكبرىٰ التي اتُّهم المماليك «الجلبان» بالسعي في اندلاعها حريق بولاق الذي وقع (يوم الجمعة سادس شهر رجب سنة ٨٦٢هـ/ ١٩ مايو١٤٥٧م)، وكان حريقًا مهولاً، وصفه ابن شاهين بأنه « لم يُسمع بمثله، وأعيا الأمراءَ بجموعهم، حتىٰ عجزوا عن إخماده وطَفيه، وحصل للناس بذلك الإجحاف الشديد، وافتقر بسببه خلق كثير»(٣). وعدَّدَ علينا ابن إياس خسائر هذا الحريق فقال: «احترق فيه نحو من ثلاثمائة دار وربوع، ودكاكين وشُوَن»(٤). وقال ابن تغري بردي: «كان عدة ما احترق فيه من الأرباع زيادة علي ثلاثين ربعـًا، كل ربع يشتمل علي مائة سكن، وأكثر، أعاليه وأسفله، ما خلا الدُّور، والأماكن، والأفران، والحوانيت، وغير ذلك»(٥).

شارع الشعراني، وانتهاؤه التقاطع الفاصل بين شارع الموسكي، وشارع السكة الجديدة. وهو باق علىٰ اسمه القديم إلىٰ الآن.

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور (١/ ٢١٤).

(٢) السخاوي: وجيز الكلام في الذيل علي دول الإسلام (ص ٦٤٨).

(٣) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل في ذيل الدول (ج٢ ق٦ ص ٣٩).

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور (٢/ ٣٤٧).

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ١٢٢).

ومع أن ابن شاهين اكتفي بالقول: « وخفي سبب هذا الحريق، وكثر القال والقيل في ذلك»[1]، فإن ابن تغري بردي حاول مناقشة أسبابه، والبحث عن مرتكبيه. وبعد أن سرد ما تردد بين الناس من أسباب - كالصواعق، أو شرارة نزلت من السماء، أو طائفة «القرمانية»[2] - رجَّح هو أن يكون «المماليك الجلبان» هم الذين تسببوا في إشعالها، حيث كانوا يفتعلون الحريق، ثم يتوجهون لإطفائه وينهبون البيوت. وقال ابن تغري بردي في التأكيد علىٰ هذا السبب: «ثم ظهر للناس بعد ذلك أن الذي صار يحرق من الأمكنة بالقاهرة وغيرها – بعد حريق بولاق - إنما هو من فعل المماليك الجلبان، لينهبوا ما في بيوت الناس عندما تُحرق، فإنما تداول إحراق البيوت أشهراً». ثم يقول - معللاً صحة ما وصل إليه -: « لا أستبعد أنا ذلك، لقلة دينهم، وعظم جبروتهم، عليهم من الله ما يستحقونه من العذاب والنكال»[3].

وفي الثورة التي قام بها جماعة من المماليك الجلبان في (شهر شوال سنة ٨٩١هـ/ سبتمبر ١٤٨٦م) توجهوا إلي المحتسب «بدر الدين بن مُزهر» وأحرقوا بيته، ففر واختفي، وذلك بسبب قيامه برفع أسعار البضائع، من اللحوم، والخبز، والجبن وغير ذلك، ثم توجهوا إلي شُوَن السلطان والأمراء، وكسروا أبوابها، ونهبوا ما فيها من شعير وقمح، « وكانت فتنة مهولة» كما يصفها ابن إياس[4].

وفي (جمادي الآخرة ٩٠٢هـ/ فبراير١٤٩٧م) توجه مجموعة كبيرة من الجلبان إلي الأمير «قانصوة خمسمائة»[5]، لينضموا إليه أثناء وجوده في حي «الأزبكية» مع

---

(١) ابن شاهين: نيل الأمل (ج٢ ق٦ ص ٣٩).

(٢) **القرمانية:** «قره مان» و« قره مانية» تعني: الرجل الأسود. وقد أطلقت للدلالة علىٰ فرقة من الجيش العثماني، تشكلت من الجنود السود (د. حسن حلاق: معجم الألفاظ التاريخية الأيوبية والمملوكية والعثمانية، ص١٧٤).

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ١٢٣).

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ٢٣٣).

(٥) قانصوة خمسمائة: وصفه ابن إياس بأنه كان أميرا جليلا، وافر العقل، كثير الأدب والحشمة، اشتراه السلطان أشرف قايتباي وأعتقه، وتولىٰ من الوظائف «الدوادارية» الثانية، وأمير آخور (الكبرىٰ)، ثم بقي «أتابك العسكر» بمصر، ثم أصبح سلطانا، وتلقب بالأشرف، وأقام في السلطنة ثلاثة أيام فقط. وقد خاض

مجموعة من الأمراء والعسكر، استعداداً لجولة جديدة من المواجهة ضد السلطان «محمد بن قايتباي» وكبار رجال الدولة، لإزاحته عن السلطنة، فلما وصل «المماليك الجلبان» إلي الأزبكية وجدوا «قانصوه خمسمائة» قد انسحب، فأحرقوا طبلخانات[1] الأتابك أزبك[2]، وباب داره، والربوع التي هناك، ونهبوا قناديل الجامع والحُصر التي به، وكان هناك «حواصل» للأتابكي أزبك، فيها خيام ونُشَّاب، فنهبوا ذلك جميعا، ونهبوا دُور سكان الأزبكية[3].

وفي خِضَمّ أحداث الفتنة التي وقعت بين كبار الأمراء الأتراك (سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) بسبب الصراع علي السلطة في عهد السلطان محمد بن قايتباي هجم «المماليك الجلبان» يوم السبت السابع والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة، علي مدرسة السلطان حسن، وأحرقوا بابها، ونهبوا ما فيها من «طستخانات»[4] وفُرُش، وقناديل، وقلعوا شبابيكها، وخلعوا رخامها، كما أنهم

معارك كثيرة، وقتل بسببه جماعة كبيرة من الأمراء، وانتهىٰ أمره بمقتله في جمادىٰ الآخرة سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م (ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٣٥٠ – ٣٥٤).

(١) **الطبلخانات**: سبق تعريفها.

(٢) الأمير أزبك بن عبد الله منطُطُخ، الأشرفي، الظاهري، سيف الدين، صهر السلطان الملك الظاهر جقمق. ولي الأتابكية في دولة الأشرف برسباي سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م، وبقي في هذا المنصب نحو ثلاثين سنة. وتنسب إليه الأزبكية، فهو الذي عمَّرها سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م، وأنشأ فيها الربوع، والحوانيت، والحمامات، والأسواق، والقصور، حتىٰ صارت مدينة منفردة. توفي في رمضان سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م. وله فضائل كثيرة (ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٤١١-٤١٣).

(٣) ابن إياس: المصدر السابق (٣/ ٣٤٩ – ٣٥٠).

(٤) **الطستخاناه/ الطشتخاناه:** بيت الطشت. والطشت: صحن كبير لحمل الطعام، أو الماء. والطشتخاناه هو المكان المخصص لوضع الطشوت اللازمة لغسل الأيدي، والقماش، وغيرها، فضلا عن المقاعد، والوسائد، والسجاد الذي يلزم السلطان، والساكنين في القلعة، ويوجد فيها كل ما يتعلق بالحمامات، مثل السخانات، والوقود، والمباخر، والمناشف (القلقشندي: صبح الأعشىٰ ٤/ ٩ -١٠، محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ١٠٨).

أحرقوا رَبْع الأمير «يشبُك» (الدَّوَادار)[1] المجاور للمدرسة، وأحرقوا بيته الموجود عند القَبْو بسوق السلاح، ثم توجهت طائفة منهم إلي «سبيل المؤمني»[2]، فأحرقوه، وأحرقوا الربوع التي تحت السور منه، كما أنهم أحرقوا رَبْع الأمير «خُشْكَلدي البيْسَقي» (محتسب القاهرة) المجاور لبيته[3].

وقد هجم غلامٌ «مملوك» علي بيت أستاذه، فأحرقه لأجل النهب، واحترق معه عدة بيوت وربوع، وكان ذلك في (شهر صفر سنة ٩١٨هـ/ أبريل ١٥١٢م)، فلما قبض عليه، وعُرض علي السلطان الأشرف قانصوه الغوري أمر بأن يُشنكل[4] ويعلق في المكان الذي أحرقه، وتم تنفيذ الحكم فيه[5].

وهكذا نجد أن الصراعات السياسية بين الأمراء، والثورات والاضطرابات التي أحدثها المماليك الجلبان بغرض الانتقام أو النهب، كانت من الأسباب التي أدت إلي وقوع العديد من الحرائق في بيوت بعض رجال الدولة، والمنشآت الحكومية، ومساكن العامة، كما طالت هذه الحرائق بعض الحوانيت، والمدارس، وأبواب مدينة القاهرة، وكانت القاهرة هي ساحة هذه الصراعات والاضرابات، بحكم أنها عاصمة البلاد، ومستقر كبار الأمراء، وفيها قلعة الجبل مقر الحكم والسلطان.

(٣) التعصب الديني وتجاوزات العامة:

من نافلة القول هنا التأكيد علي حقيقة تاريخية متفق عليها، وهي أن اليهود والمسيحيين قد تمتعوا بقسط وافر من العدالة الاجتماعية، والحرية الدينية، والحقوق

(١) سبق التعريف بالأمير يشبك. **والدوادار:** لقب علىٰ الذي يحمل دواة السلطان، أو الأمير، أو غيرهما، ويتولىٰ أمرها، مع ما ينضم إلىٰ ذلك من المهمات، نحو تبليغ الرسائل عن السلطان، وتقديم البريد، وتنفيذ أمور، وغير ذلك، بحسب ما يقتضيه الحال. وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي، وهو الدواة. والثاني فارسي، وهو دار، ومعناه: ممسك. أي: ممسك الدواة (القلقشندي: صبح الأعشىٰ ٤/ ١٩، ٥/ ٤٦٢).

(٢) **سبيل المؤمني:** سبق تعريفه.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ٣٧٠ - ٣٧١).

(٤) **الشنكلة:** طريقة لتنفيذ حكم الإعدام، يُعلق فيه المحكوم عليه بالإعدام بكلاليب معقوفة من تحت إبطيه، وينزف حتىٰ يموت (محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ٩٩).

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور (٤/ ٢٥٨).

المدنية، في الدولة الإسلامية عبر عصورها المختلفة، في مصر، والشام، والعراق، وغيرها من المناطق، باعتبار أنهم رعايا ومواطنون من أبناء الدولة، ينعمون فيها بحقوق «المواطنة»، في ظل من الأمان والعهد. وهذا هو الذي يمثل الإطار التطبيقي لما جاء به الإسلام من تعاليم سامية، تدعو إلي بناء مجتمع قائم علي أساس من العدل، والرحمة، والبر، مما أتاح لأولئك الرعايا ممارسة النشاط الاجتماعي، والاقتصادي في الحياة العامة، واستعانت بهم الدولة في إسناد بعض الوظائف الإدارية والمالية(١).

وقد أثبتت الدراسات التاريخية الحديثة التي تناولت أوضاع الأقباط المصريين(٢) في العصر المملوكي أن الأقباط في هذا العصر – فضلا عن العصور التي سبقته – قد عاشوا يتمتعون بحرياتهم الاجتماعية، ونعموا بمساحة واسعة من التسامح، وتولوا المناصب الإدارية المهمة، وارتقوا في وظائف الدولة، كما نعموا بحرية تنظيم جماعاتهم داخليًا، تحت رئاسة يختارونها، في ظل روح الإسلام وتسامحه مع أهل الكتاب. وأكدت تلك الدراسات – بالأدلة التاريخية الوثائقية – علي أن أقباط مصر شاركوا في أحداث عصر سلاطين المماليك، ونشاطاته الاجتماعية، والاقتصادية،

---

(١) يراجع في ذلك على سبيل المثال (ا. س. ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة د. حسن حبشي، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة المصريين (رقم ٧٠) لسنة ١٩٩٤م. آرنولد توينبي: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، ط: القاهرة ١٩٥٧م. د. ناريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مكتبة الأسرة، ١٩٩٧م. د. إبراهيم العدوي: نظام المواطنة في الإسلام ومنجزاته للحضارة العربية (مجموعة البحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية)، ط: القاهرة ١٩٨٣م. محمد سيد كامل: النصارى والنشاط الاقتصادي في مصر الفاطمية في ضوء أوراق البردي العربية، بحث منشور بمجلة المؤرخ العربي، يصدرها اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، العدد (١٥) مارس ٢٠٠٧م (ص١٤١– ١٦٤) .

(٢) تطلق كلمة «قِبْط» علي جيل من أهل مصر الأولين، واحدهم «قِبْطي». ولم تكن تعني – وقت الفتح العربي لمصر مذهبًا دينيًا، ولا ترادف كلمة «مسيحيي مصر»، وإنما كانت تعني «أهل مصر». ويظهر من النصوص المختلفة أن كلمة «قبط» كانت تعني «المصريين»، مصريين كانوا أو مسيحيين، على الأقل حتى (القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، وإن كانت بمرور الزمن - وحتى الآن – تعني «المصريين المسيحيين» (د. سيدة الكاشف: مصر الإسلامية وأهل الذمة، ص٨٣).

والسياسية، مشاركة إيجابية في معظم الأحوال، مما ينهض دليلا علي أنهم كانوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع المصري، يتأثرون بأحداثه الجارية، ويخضعون للظواهر نفسِها التي خضع لها المجتمع بأكمله. كما أن روح التعايش السلمي والوفاق الاجتماعي كانت هي السائدة بين المسلمين والأقباط في مصر خلال عصر المماليك[1].

وفي أحوال أخري قليلة، وأوقات طارئة، وقع بين الطرفين حوادث من المشاحنات، والمشاغبات، أو الصدامات العنيفة، كان لها أسبابها ودوافعها، ونتج عنها العديد من مظاهر التخريب، والاعتداءات علي الممتلكات، والمنشآت، والمرافق العامة والخاصة.

والذي يعنينا هنا من تلك المواقف الصدامية التي تسبب في وقوعها بين بعض العناصر من المسلمين والأقباط – والتي تُعَدُّ في الوقت نفسه حوادث فردية استفزازية ، ولا تعبر عن روح التسامح التي كانت سائدة بين جمهور الطرفين، باعتبارهما يمثلان نسيجًا واحدًا للمجتمع المصري– أعمال الحرائق التي قام بها مجموعة من الأقباط في القاهرة المملوكية وضواحيها، ونتج عنها تدمير شامل لبعض أحيائها ومعالمها العمرانية، وأعمال الهدم والحرق لبعض كنائس القاهرة، قام بها طائفة من الغوغاء من عامة المسلمين.

وقد أمدتنا مصادرنا بحادثتين فقط من هذا النوع، وقعتا في القاهرة:

الحادثة الأولي: في (جمادي الآخرة سنة ٦٦٣هـ/ مارس ١٢٦٥م)، اشتعلت الحرائق في بعض أحياء القاهرة، فاحترقت «حارة الباطلية»[2] بأسرها، كما يذكر

---

(١) علىٰ سبيل المثال يراجع في ذلك د. قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتىٰ نهاية عصر المماليك، دراسة وثائقية (ص٥٩ – ١٧٠)، ط: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الجيزة، مصر ٢٠٠٣م، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي: عصر سلاطين المماليك (ص٦٣ – ٩٢). د.عبد المجيد دياب: تاريخ الأقباط (ص٤٩-٥٠).

(٢) **الباطلية:** سميت بذلك – كما يقول المقريزي في (الخطط ٣/ ١٥) – لأنها عرفت بطائفة يقال لهم الباطلية، وكان المعزّ الفاطمي (ت ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) لما قسَّم العطاء في الناس جاءت طائفة فسألت

المقريزي، واحترق فيها من البيوت ثلاثٌ وستون داراً جامعة، واحترق «ربع» فرج (وكان وقفًا علي أشراف المدينة)، والجزء المُطل علي النيل من «ربع» العادل، «ونزل بالناس من الحريق في كل مكان شدة عظيمة» كما يقول المقريزي(١).

وقد اتهم الأقباط بالتسبب في هذا الحريق. ويبدو أن تحقيقا جري في هذه الواقعة، غير أن المصادر لم تشر إلي ذلك، إلا ما ورد عن وجود لفائف نفط وكبريت علي أسطح بعض البيوت المحترقة، اعتبرت دليلا علىٰ هذا الاتهام (٢). وذكر المقريزي في (الخُطط) أن السبب الحقيقي الذي دفعهم إلي إشعال الحرائق هو حنقهم علي السلطان الظاهر بيبرس، ورغبتهم في الانتقام لما فعله السلطان في الشام، حيث نجح في الاستيلاء علي أرسوف، وقيسارية، وطرابلس، ويافا، وأنطاكية(٣).

وقد عزم السلطان الظاهر بيبرس علي معاقبة الأقباط بالحرق، فلما جُمع مجموعة منهم في قلعة الجبل (لم تذكر المصادر عددهم)، وقُدِّموا للحرق، سألوه العفو، وتشفَّع فيهم بعض الأمراء، ومنهم الأمير «فارس الدين أقطاي» (أتابك العسكر)، فأفرج السلطان عنهم، شريطة أن يدفع «المسيحيون» لخزينة الدولة خمسمائة ألف دينار، يُسدّدون منها خمسين ألف دينار كل عام، إضافة إلي إلزامهم بإصلاح ما احترق من البيوت، وألا يعودوا إلي ارتكاب شئ من «المنكرات»، وألا يخرجوا عما هو مرتب علي أهل الذمة من التزامات (٤).

الحادثة الثانية: في عام (٧٢١هـ/ ١٣٢١م) عاشت مصر فتنة طائفية كبيرة بين المسلمين والأقباط، أرخ لها بتفاصيل دقيقة كلٌّ من النُّوَيري في (نهاية الأرَب) (٥)،

عطاءها، فقيل لها: أفرغ ما كان حاضراً، ولم يبق شيء؛ فقالوا: رحنا نحن في الباطل، فسمّوا الباطليّة، وعرفت هذه الحارة بهم.

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان (٢/ ٣٢٠)، المقريزي: الخطط (٣/ ١٥).

(٢) المقريزي: السلوك (ج١ ق٢ ص٥٣٥).

(٣) المقريزي: الخطط (٣/ ١٥). وراجع السلوك (ج١ ق٢ ص٥٢٨ – ٥٣١).

(٤) اليونيني: ذيل مرآة الزمان (٢/ ٣٢٠ –٣٢١)، المقريزي: السلوك (ج١ ق٢ ص٥٣٥).

(٥) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب (٣٣/ ٧– ١٩).

والمقريزي في كتابيه (السلوك) و(الخطط)[1]، ونقل عنه تلميذه ابن تغري بردي جانبًا كبيرًا منها في (النجوم الزاهرة)[2]. وأشار إليها - بإيجاز شديد - عدد من المؤرخين، كابن كثير، وابن الوَردي، والصَّفَدي، واليافعي، والسيوطي، وغيرهم[3]. وكانت بدايتها عندما أراد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إنشاء «بُحَيرة»، أُطلق عليها - فيما بعدُ - «البركة الناصرية»[4]، بالقرب من «جامع الطيبرسي»[5] علي النيل الأعظم، واحتاج إلي طين كثير، فنزل بنفسه إلي هذه المنطقة، وكانت خالية من العمارة، إلا من بساتين، وبعض الكنائس والأديرة للأقباط، وعيَّن مكانًا من أرض «بستان الزهري» قريبًا من «ميدان المهاري»، وقنطرة السباع (غرب حي باب اللوق) ليأخذ منه الطين، وعَوَّض أصحاب المكان بديلا عنه. وفي (يوم الثلاثاء ١٩ ربيع الأول ٧٢١هـ/ ١٨ أبريل ١٣٢١م) ابتدأ الأمراء في الإشراف علىٰ الحفر، وحُمل الطين علي البغال والدواب إلي شاطئ النيل، حيث مكان الزريبة، فلم يزل الحفر مستمراً إلي أن

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢١٦- ٢٢٨)، الخطط (٤/ ٤٤٠-٤٤٧).

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٣- ٧٢). وقد أرخ هذه الأحداث في سنة ٧١٠هـ، وهذا خطأ، ومخالف لما عليه جمهرة المؤرخين.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية (١٤/ ١١٣)، الصفدي: الوافي بالوفيات (١٩/ ٦٩)، اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان (٤/ ٢٦٠ -٢٦١)، ابن الوردي: تاريخ (٢/ ٣٨٧- ٣٨٨)، ابن أيبك الدوادار: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر- وهو الجزء التاسع من« كنز الدرر وجامع الغرر» (ص ٣٠٦)، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (٢/ ٣٠١).

(٤) هي «بركة الناصرية» التي جعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون مساحتها سبعة أفدنة، وصار ما حولها من أكثر خطط القاهرة عمارة في عصر المماليك حتىٰ سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م (المقريزي: الخطط ٣/ ٢٩١-٢٩٢، عبد الرحمن زكي: القاهرة: القاهرة تاريخها وآثارها ص١٠٩).

(٥) **جامع الطيبرسي:** حدد المقريزي موقعه علىٰ شاطئ النيل، في أرض بستان الخشاب. أنشأه الأمير علاء الدين علي بن أحمد، الطيبرسي، الخازندار نقيب الجيوش. وهو من أعيان رؤساء الديار المصرية. وعَمَّر بجواره خانقاه في جمادىٰ الأولىٰ سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م، وكان من أحسن منتزهات مصر وأعمرها. وأنشأ أيضًا المدرسة الطيبرسية بجوار الجامع الأزهر. توفي سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م (المقريزي: الخطط ٤/ ١٠٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩/ ١٩٩).

اقترب من «كنيسة الزهري»[1]، وأحاط بها، وأصبحت في الوسط مفردة في مكانها، بحيث تمنع من اتساع البركة، إلا أن غلمان الأمراء والفَعَلة الذين يعملون في الحفر كانوا يريدون هدم الكنيسة، وتسويتها بالأرض، وكان الأمير «آقسُنقر» (شادُّ العمائر)[2] يمنعهم من فعل ذلك.

وفي وقت صلاة الجمعة (التاسع من ربيع الآخر) توقف العمل، لانشغال الأمراء بالصلاة في الجامع الأزهر، واجتمع طائفة كبيرة من غوغاء العامة من المسلمين، وقاموا - «بغير مرسوم السلطان»، وبدون علم رجال الأمن - بهدم ونهب كنيسة الزُّهري، بالمساحي والفؤوس، حتىٰ صَيَّروها كومة من الأنقاض والتراب، وقتلوا من كان فيها من الأقباط، ونهبوا ما فيها من الأموال، ثم انتقلوا إلي كنائس أخري في القاهرة بالنهب والهدم، والحرق، مثل كنيسة بستان السُّكَّري، وتُعرف بـ«الكنيسة الحمراء» المجاورة لكنيسة الزهري، و«كنيسة أبي متَّىٰ» بجوار السبع سقَّايات[3]، وكانت مُعظَّمة عند الأقباط من قديم الزمان. كما هجموا علي كنيستين في المنطقة نفسها - تُعرف إحداهما بكنيسة البنات - فكسروا أبوابهما، ونهبوا ما فيهما، وسَبُوا عددًا من الراهبات، ثم تجمعوا بأعداد كبيرة لهدم الكنيسة المعلقة (بقصر الشمع)، حيث مسكن البَطْرَيَرك، فلم يُمَكَّنوا منها. كما أنهم خَرَّبوا كنيسةً بحارة الروم، وكنيسةً

---

(١) ذكر المقريزي في (الخطط ٤/ ٤٤٠) أن كنيسة الزهري كان بجانبها عدّة كنائس في الموضع الذي يُعرف بحكر أقبغا، ما بين (السبع سقَّايات) وبين (قنطرة السدّ) خارج مدينة مصر.

(٢) **الشدَّ:** ترادف كلمة «تفتيش»، ويُسمي متولِّي هذه الوظيفة «الشادّ»، مضافًا إليها الاختصاص. **وشاد العمائر:** وظيفة، يتخصص شاغلها في العمائر السلطانية، مما يريد السلطان إحداثه أو تجديده، من القصور، أو الدور، أو الأسوار، وغيرها. وهي إمرة عشرة (القلقشندي: صبح الأعشىٰ ٤/ ٢٢). **والأمير اَق سنقر** هو: اَق سنقر (الرومي) بن عبد الله، شاد (ناظر) العمائر السلطانية، وإليه تنسب قنطرة آق سنقر التي علىٰ الخليج الكبير، قبالة الحبانية، وأنشأ أيضًا الجامع بسويقة السباعين علىٰ البركة الناصرية، وحمَّامين بخط البركة الناصرية، توفي بدمشق سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م (المقريزي: الخطط ٤/ ١١١).

(٣) **السبع سقَّايات:** هي عبارة عن سبعة أحواض كانت مخصصة للشرب، وتقع علىٰ يمين السالك في شارع السد الجوَّاني، تجاه مسجد السيدة زينب، في الجهة الغربية (حواشي محمد رمزي علىٰ النجوم الزاهرة ٤/ ٣٨، حاشية ٢).

بحارة زويلة[1]، وكنيسة بحارة برجوان، وكنيسة بالبندقانيين[2]، وكنيسة الفهَّادين بحارة «حُكْر أقبغا». وعندما خرج الناس من صلاة الجمعة بالجامع الأزهر بالقاهرة شاهدوا هَوْلاً كبيراً من جرَّاء الغبار الكثيف ودخان الحريق، والعامةُ في الطرقات في هرج عظيم، ومعهم ما سلبوه ونهبوه، وهم يقولون «السلطان نادىٰ بخراب الكنائس»، فلما سأل الناس عن الأمر لم يشكوا في أنه كذلك، ثم تبين أنه كان إشاعة من العامة، وأنه فرية علي السلطان، ولم يأمر بشئ من ذلك.

وعندما علم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بما حدث انزعج انزعاجا عظيما، وغضب غضباً شديداً علي العامة، «لتجرؤهم وإقدامهم علىٰ ذلك بغير أمره»، وأصدر أوامره إلىٰ الأمراء بكف العامة عن الكنائس وحمايتها، وكبح جماح الغوغاء، والقبض علي من تورَّط في تلك الأحداث ومعاقبتهم، «وأن يضعوا السيف فيمن وجدوه». إلا أن اضطراب العامة كان كبيراً، ولم يستطع الأمراء السيطرة علي تلك الفوضىٰ[3].

وأشار ابن الوردي والنويري إلي أن السلطان استفتىٰ القضاة في أمر هؤلاء العامة الذين قاموا بهدم وحرق بعض الكنائس، والذين تجمهروا، متسببين في إحداث الفوضىٰ، فأفتوه بتعزيرهم، فأخذ جماعة منهم، فشنق، وقطع أيادي، حتىٰ سكنوا[4].

وقد حدث من الأمور ما صار الناس يتعجبون منه، حيث إن حرق الكنائس وهدمها لم يكن في القاهرة فقط، بل تواترت الأخبار بأن العامة هدمت – وفي التوقيت نفسه، وقت صلاة الجمعة، التاسع من ربيع الآخر – عدداً من الكنائس بالإسكندرية،

---

(١) **حارة زويلة:** تتفرع من شارع بين السورين علىٰ اليسار، وهي حارة كبيرة جدا، بداخلها عطف وحارات، اختطتها قبيلة زويلة عند دخولها القاهرة مع جوهر الصقلبي القائد. ومكانها الآن حارة اليهود، ودرب الصقالبة (علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ٣/ ٧٢- ٧٣) .

(٢) سيأتي التعريف بالبندقانيين.

(٣) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢١٦ – ٢١٩)، الخطط (٤/ ٤٤١). النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب (٣٣/ ٨ -٩).

(٤) ابن الوردي: تاريخ (٢/ ٣٨٧)، النويري: نهاية الأرب (٣٣/ ٩).

ودمنهور، ومدينة قوص بالصعيد، وكنائس أخرىٰ في الشرقية، والغربية بالوجه البحري، حتىٰ بلغ عدد الكنائس المنهوبة والمحترقة في القاهرة، وعددٍ من المدن المصرية، ستين كنيسة، كما أحصاها المقريزي(١).

وعلىٰ الرغم من أن المراجع المتداولة لا تخبر بشئ عن سبب تلك الحركة الواسعة – من وقوع هدم الكنائس وحرقها في وقت واحد بالقاهرة والمدن المختلفة، بالوجهين البحري والقبلي – فإنه لا يُستَبعَد أن يكون ذلك مُبيَّتا ومُدبرًا أدق تدبير، ولعله يدلل علي وجود أحد يسعىٰ لفساد الأمور، وإحداث حالة من الفرقة والفَوضىٰ في مصر. وقد عبَّر المقريزي بعبارة قد تؤيد هذا التفسير، حيث يقول: «وكأنما نُودي في إقليم مصر بهدم الكنائس»(٢).

وقد يعود السبب إلىٰ وجود قُوَىٰ خارجية – كالقبارصة، وبعض القُوَىٰ الأوربية، والمغول – تسعي من وراء تدبير هذه الأعمال إلىٰ زعزعة الاستقرار الداخلي في البلاد المصرية، لإضعافها، بهدف تقليص نفوذ المماليك وتَحكُّمهم في طرق التجارة الدولية. ولعل ما يذكره النويري في سياق بحثه عن أسباب الحادثة ما يبرهن علي ذلك، حيث يقول: «وقائل يقول: لعلها من قِبَل الملوك والأعداء»(٣).

ولم تتوقف هذه الفتنة عند هدم واحتراق بعض الكنائس، وإنما فوجئ الناس – بعد ذلك بشهر – بوقوع حرائق هائلة، قام بها مجموعة متعصبة من الأقباط، وشملت أحياء كثيرة في مدينة القاهرة، بدءا من (يوم السبت ١٥ جمادىٰ الأولىٰ ٧٢١هـ/ ١٢ يونيو ١٣٢١م)، «وحصل فيها من الشنائع أضعاف ما كان من هدم الكنائس» (كما يقول المقريزي) (٤)، واستمرت إلي آخر هذا الشهر، وأحرقت النيران كثيرًا من البيوت، والأرباع، والفنادق، والمساجد، والمدارس. وقد جاءت هذه الحرائق كرد

(١) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢١٩)، الخطط (٤/ ٤٤٢).
(٢) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص ٢١٨).
(٣) النويري: نهاية الأرب (٣٣/ ١٠).
(٤) المقريزي: الخطط (٤/ ٤٤٢).

فعل من الأقباط على هدم وحرق بعض كنائسهم ونهبها، على أيدي مجموعة غوغائية من المسلمين[1].

بدأت حوادث هذا الحريق (يوم السبت ١٥ جمادى الأولى، من السنة المذكورة) باشتعال النيران في «رَبْع» من أوقاف المارستان المنصوري، بخط الشوايين بالقاهرة، كان الحريق هائلا، لدرجة أن الناس – ومعهم الأمراء ومُعاونوهم – ظلوا يقاومون النيران حتى عصر اليوم التالي (الأحد)، ثم سرت النيران في عدة أماكن أخرى، وساعدت الرياح على سرعة سريانها، واضطر الناس إلى هدم عدة بيوت مجاورة لأماكن الحرائق لمحاصرتها، ولكنَّ الرياح ساعدت على اشتداد وطأة الكارثة، وخرج أمر الحريق عن القدرة البشرية، وخرجت ريح عاصفة ألقَتْ النخيل، وأغرقت المراكب، ونشرت النار، فما شك الناس أن القاهرة احترقت عن آخرها، أو أن القيامة قد قامت، وعظم شرر النيران، وصارت تسقط في عدة أماكن بعيدة، فهرب الناس إلى الجوامع والزوايا للصلاة، وتعلقوا بالمآذن وضجوا بالدعاء والتضرع، وكثر صراخهم وبكاؤهم، وصعد السلطان إلى أعلى القصر في القلعة، فهاله ما رآه، ولم يتمالك الوقوف من شدة الريح.

ورغم نزول نائب السلطان، والأمراء، وجميع أهل القاهرة، صباح يوم الثلاثاء، لمكافحة الحريق، ورغم استخدام جمال الأمراء، وتجنيد جميع السقائين في نقل المياه من المدارس والحمامات والآبار، وتجنيد البنائين والنجارين لهَدْم الدُّور التي لحقتها النيران، ورغم أن أربعة وعشرين من الأمراء مُقدَّمي الألوف[2]، ومعهم كل أتباعهم - قد اشتركوا في مكافحة الحريق، بحيث صار المكان «من حارة زويلة إلى حارة الروم بَحْرًا» (على حد تعبير المقريزى)، من كثرة تدفق المياه، وكثرة الرجال

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٣).

(٢) **أمراء الألوف:** أعلى طبقات الأمراء في الجيش المملوكي، بعد منصب الأتابك، يخدمه مائة مملوك، وله التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء. وعادة ما يكون أصحاب المناصب القيادية في الدولة من مقدمي الأمراء (القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ١٤، ٤٢٣، محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٢٢).

والجمال التي تحملها - فإن النيران لم تخمد إلا بنهاية اليوم الرابع، لتتجدد في اليوم الخامس مباشرة، وتستمر حتىٰ اليوم السادس. ثم خمدت النار، وعاد الأمراء إلىٰ بيوتهم، «وكان هذا اليوم لم يُرَ أشنعَ منه، بحيث لم يبق أحدٌ إلا وهو في شغل شاغل»[١].

وكان «رَبْع» الملك الظاهر بيبرس (ويقع خارج باب زويلة) من أهم المنشآت العمرانية التي احترقت، ويشتمل علىٰ مائة وعشرين منزلاً. وامتد الحريق إلىٰ «قيسارية الفقراء»، وبيت الأمير «سَلَّار»[٢] بخط القصرين، وكان متعدد الأدوار، ويرتفع عن الأرض زيادة علىٰ مائة ذراع[٣].

ولما تمادىٰ الحال علىٰ ذلك - بحيث لا تخلو ساعة من وقوع الحريق بموضع من القاهرة والفسطاط - تنبَّه الناس لما نزل بهم، وظنوا أنه من أفعال الأقباط، لأن النار كانت تُرىٰ في منابر الجوامع، وحيطان المساجد والمدارس، ووجدت النار بالمدرسة المنصورية[٤]، فاستعدوا للحريق، وتتبعوا الأحوال حتىٰ وجدوا هذا الحريق من نفط قد لُفَّ عليه خِرَقٌ مبلولة بزيت وقطران، ثم شاع بين الناس أن الحريق يقوم به الأقباط، بسبب ما أنكاهم من هدم الكنائس ونهبها، فزاد قلق الناس وكثر خوفهم، وزاد استعدادهم بادخار الآلات المملوءة ماء في أسطح البيوت وغيرها. وأكثر ما كانت النار تُوجد في أعلىٰ المباني، فتقع في زروب الأسطحة، والباذْهَنجانات[٥].

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٨ - ٢٢٩)، الخطط (٤/ ٤٤٣).

(٢) الأمير سلار المنصوري: كان نائب السلطنة في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٨٤-٧٤١هـ/ ١٢٨٥-١٣٤١م).وكان مشهوراً بالشجاعة والفروسية.قتل في سجنه في ربيع الآخر سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م (ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٢/ ٢٧٦).

(٣) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٢)، الخطط (٤/ ٤٤٣).

(٤) **المدرسة المنصورية:** تقع في منطقة «بين القصرين»، أنشأها - هي والقبة المنصورية التي تقع تجاهها - السلطان المنصور قلاوون الألفي، علىٰ يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، وهما - المدرسة والقبة - من داخل البيمارستان المنصوري (المقريزي: الخطط ٤/ ٢٢٦، ٢٨٠).

(٥) **البادهنج - أو البادنج** -: منفذ في سطح الدار للتهوية، علىٰ هيئة أسطوانة، يدخل منها هواء النسيم. وهي كلمة فارسية (تعليقا محمد رمزي علىٰ النجوم الزاهرة ٩/ ٦٧ حاشية ٢).

وفي يوم الخميس (٢٠ من جمادي الأولىٰ) قبض علي ثلاثة من الأقباط في حارة العطوف، وقد ألقوا ناراً في بعض الدور، فعوقبوا بالضرب، حتي أقرُّوا واعترفوا بالحريق، وأُطلقوا [١]. وفي ليلة الجمعة (٢١ من الشهر) قُبض علىٰ راهبين خرجا من «المدرسة الكَهارية»[٢] بالقاهرة، بعد العشاء الآخرة، وقد ألقيا فيها النار، فأحْضِرا إلىٰ الأمير «علم الدين سَنجَر» (والي القاهرة)، فشمَّ منهما رائحة الكبريت والزيت، فأحضرهما من الغد إلىٰ السلطان، فأمر بعقوبتهما حتىٰ يعترفا، فلما نزل الوالي بهما وجد العامة قد قبضت علىٰ قِبْطيٍّ آخر وَجَدوه في «جامع الظاهر» بالحُسينية، ومعه خِرَق من القماش علىٰ هيئة الكعكة، في داخلها نِفط وقطران، وضعها بجانب المنبر، وانتظر حتىٰ بدأ الدخان يتصاعد، ثم انفلَتَ يريد الخروج، فتشكك فيه أحد العامة، وراقبه من حيث لا يشعر، ثم أمسكه وهو خارج، والأثر في يديه، وتجمعت العامة وقادته إلي بيت الوالي، فعُوقب قبل صاحبيه، في حضرة الأمير «ركن الدين بيبرس الأحمدي» حتىٰ اعترف بأن جماعة من الأقباط قد اجتمعوا لعمل النفط، وفرقوه علىٰ جماعة من أتباعهم، ليدوروا به علىٰ المواضع، وأنه كان واحدًا منهم، وأُمر بوضع فتائل النفط بجوار منبر جامع الظاهر. ثم عاقب الأمير «علم الدين» الراهبين، فأقرا بأنهما من رهبان «دير البغل»[٣]، وأنهما هما اللذان أحرقا سائر الأماكن بالقاهرة؛ نكاية في المسلمين بسبب هدمهم الكنائس، وأن طائفة من الأقباط تعاونت فيما بينها،

---

(١) النويري: نهاية الأرب (٣٣/ ١٠).

(٢) **المدرسة الكهارية**: أنشأها الملك السعيد محمد بركة خان، ابن الملك الظاهر بيبرس (سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)، وسميت بذلك لأنها تقع في درب الكهارية، بجوار حارة الجودرية (قرب باب الخلق)، المسلوك إليه من «القماحين»، ويُتوصل منه إلىٰ المدرسة «الشريفية» (المعروفة الآن بجامع بيبرس الخياط) بشارع الجودرية بالقاهرة (المقريزي: الخطط ٣/ ٧٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ٩/ ٦٧، حاشية رقم٣).

(٣) **دير البغل:** ذكر المقريزي في (الخطط ٤/ ٤٢٤، ٤٣٦) أن هذا الدير يقع في أعلىٰ الجبل، ويطل علىٰ الصحراء والنيل، وعلىٰ القرية المعروفة بـ «شهوان» (التي تعرف اليوم باسم المعصرة، بين طرة، وحلوان). ويعرف أيضا بدير القُصَير، ودير هرقل. وذكر محقق (النجوم الزاهرة ٤/ ١٩١) أن هذا الدير قد خرب من زمن بعيد، وكان موقعه فوق جبل المقطم، في الاتجاه الشرقي لمحطة المعصرة.

وأنفقت الأموال الكثيرة لإعداد الفتائل وحَشَوْها بالنفط، ووضعوها في سهام، وفرقوا الفتائل علىٰ جماعة، فصاروا يدورون في القاهرة بالليل، وحيث وجدوا فرصة انتهزوها، وألقوا بالفتيلة، فكانت إذا خرجت من السهم تقع علىٰ مسافة مائة ذراع [1].

وفي إشارة نادرة لابن أيبك الدواداري يذكر فيها أن المجموعة التي قامت بأعمال الحرائق لقَّبوا أنفسهم بالمجاهدين [2].

وقد أخبر الوالي «علم الدين سَنجَر» السلطانَ بذلك كله، فأشار عليه القاضي كريم الدين (ناظر الخاص) [3] باستدعاء البطريرك [4] رئيس الأقباط، للتحدث معه في أمر الحريق، واستعلام الخبر منه، فأحضره الوالي ليلا، خوفا عليه من العامة، إلي بيت كريم الدين، وبالغ في إجلاله «علىٰ عادة القبطية» (كما يقول ابن تغري بردي)، وأعلمه بما حدث، وبما اعترف به الرهبان الثلاثة المقبوض عليهم، وأحضرهم إليه، وأقروا أمامه بما فعلوه، فبكىٰ البطريرك وقال: «هؤلاء سفهاء النصارىٰ، قد فعلوا كما

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٣).

(٢) ابن أيبك الدوادار: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر - وهو الجزء التاسع من« كنز الدرر وجامع الغرر» (ص ٣٠٦).

(٣) **ناظر الخاص:** هو من يتولي الإشراف علىٰ الديوان الخاص بأموال السلطان، والقيام بضبطها، وجهات قبضها وصرفها، وتحصيلها (د. حسن حلاق: معجم الألفاظ التاريخية الأيوبية والمملوكية والعثمانية، ص٢١٩).

وكريم الدين: هو عبد الكبير بن عبد الله، كريم الدين الكبير. كان كاتبا لبيبرس الجاشنكير، وأسلم في أيام سلطنته، ولما عاد الناصر محمد بن قلاوون إلي السلطنة عام (٧٠٩ه/ ١٣٠٩م) عينه ناظرا للخاص، وهو أول من تولي هذه الوظيفة، وبلغ عند الناصر منزلة عظيمة. ثم تغير عليه، وصادر أمواله، وتوفي ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م (ابن إياس: بدائع الزهور ج١ ق١ ص٤٥٣).

(٤) وهو – في هذا الوقت – حنا التاسع [١٣٢١–١٣٢٧م/ ٧٢١–٧٢٨هـ] (**Butcher: The story of Church of Egypt. 11. p. 193 et seq**). وجاء في الجداول التي ذكرها د. عبد المجيد دياب في كتابه (تاريخ الأقباط، ص ٦٥ – ٧١) – التي تضم أسماء بطاركة الكنيسة المصرية منذ تأسيسها إلىٰ اليوم – أن اسم البطريرك (الذي كان موجودا حينما وقع حريق سنة ٧٢١هـ - هو «بنيامين الثاني».

فعل سفهاؤكم بالكنائس من غير إذن السلطان، والحكم للسلطان». ثم ركب بغلته وانصرف «مُبجَّلًا مُكرَّمًا» إلىٰ حال سبيله في حماية المماليك[1].

وذكر ابن الوردي في (تاريخه) أن الذين قبض عليهم أثناء قيامهم بأعمال الحرق عُرضوا علي السلطان، فذكر بعضُهم أن جماعة من القسيسين اتفقوا علي هذا، بسبب ما حصل من التعرض لكنائسهم، وأنهم رتبوا أربعين نفسًا من الأقباط يلقون النار في بيوت المسلمين، ومساجدهم[2].

وفي اليوم التالي أمر السلطان والي القاهرة بإنزال العقوبة بالأقباط المتسببين في إشعال الحرائق، فقبض علىٰ أربعة عشر راهبًا من «دير البغل»، «تحالفوا علىٰ إحراق ديار المسلمين كلها، وفيهم راهب يصنع النفط، وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر (الفسطاط)، فجعل للقاهرة ثمانية، ولمصر ستة، فكُبس «دير البغل»، وقبض علىٰ من فيه، وأحرق منهم أربعة في حفرة كبيرة بشارع صليبة جامع ابن طولون، في يوم الجمعة، أمام جمع كبير من الناس. ثم أحضر والي القاهرة قبطيين آخرين، قُبض عليهما وهما يحرقان الدور، فأُحْرِقا في حفرة خارج الميدان، يوم السبت، الثاني والعشرين من جمادي الأولىٰ[3].

وعلىٰ الرغم من وقوع تلك العقوبات فإن العامَّة بقيت في حالة هيجان، واعتدوا علي «كريم الدين» (ناظر الخاص)، وسبُّوه، ورموه بالحجارة، واتهموه بأنه «يحامي للأقباط»، فشق ذلك علىٰ السلطان، وأصر علىٰ مواجهة الموقف بصرامة، واتخاذ إجراءات حاسمة، خوفا من اتساع الفتنة، والإضرار بالدولة، «وحتىٰ لا يترجأَ مَن بعدهم مِن العوام علىٰ الملوك»، ورفض نصيحة أحد أمرائه بعزل الكُتَّاب الأقباط من الخدمة في الدواوين إرضاء للناس، وأمر بعض الأمراء أن ينزلوا بالقوات إلي جميع

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٤)، الخطط (٤/ ٤٤٤).

(٢) تاريخ ابن الوردي (٢/ ٣٨٨).

(٣) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٤)، الخطط (٤/ ٤٤٤ - ٤٤٥). النويري: نهاية الأرب (١١/٣٣).

أحياء القاهرة، ويضعوا السيف في «المشاغبين» الذين تجمهروا، والقبض علىٰ المتسببين في إحداث الفوضىٰ. وسرعان ما وصل الخبر إلي الناس، فعم الذعر، وهربوا في كل وجه، وعبروا النيل إلىٰ البر الغربي بالجيزة، وأغلقت جميع أسواق القاهرة، وخلت الطرقات من الناس، وقُبض علىٰ نحو مائتين من عامة المسلمين، من منطقة باب اللواء، وناحية اللوق، وباب البحر، فعزم السلطان الناصر علىٰ أن يجعل منهم عبرة وعظة، وعبثًا حاول الأمراء أن يتوسطوا لهم لتخفيف حكمه، فأمر بصلب جماعة منهم علىٰ الخشب، وأن يعلقوا بأيديهم، فأصبحوا يوم الأحد مُعلَّقين صفـًا واحداً، من باب زويلة إلىٰ سوق الخيل تحت القلعة، ليكونوا عبرة لغيرهم. وكان من بينهم من له بزَّة وهيئة. كما قُطعت أيدي ثلاثة من خلاف، ومات رجلان ممن قطعت أيديهم [1].

وبالرغم من أن السلطان شدد في العقوبة ضد المتسببين في إشعال الحرائق مِن الأقباط، وفي حق مَن أحدثوا الفوضىٰ من عامة المسلمين فإن الحرائق اشتعلت من جديد في أماكن عديدة بجوار «جامع ابن طولون»، وفي القلعة، وفي بيت الأحمدي بحارة بهاء الدين من القاهرة، وأحرقت النيران فندق «طرنطاي»[2] خارج باب البحر، حتىٰ سُوِّي بالأرض، فدُهش السلطان، وقُبض في هذا الحريق علىٰ ثلاثة رهبان، معهم فتائل النفط، واعترفوا أمام السلطان أنهم فعلوا ذلك.

وقد تأزمت الأمور بين العامة من المسلمين، وبين السلطان محمد بن قلاوون، حيث رفض أن يستجيب لضغوطهم[3]، إلىٰ أن ركب السلطان إلىٰ الميدان في يوم

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٥- ٢٢٦)، الخطط (٤/ ٤٤٥). النويري: نهاية الأرب (٣٣/ ١٢ - ١٤).

(٢) **فندق طرنطاي:** ذكر المقريزي في (الخطط ٣/ ١٧٢) أنه يقع خارج باب البحر، ظاهر المقس، وفوقه رَبع كبير. وذكر محقق (النجوم الزاهرة ٩/ ٧٠) أنه كان واقعا بشارع قنطرة الدكة، في نهايته الغربية، عند تلاقيه بشارع توفيق، حيث كان النيل يجري قديما في تلك الجهة قبل ظهور الأرض التي عليها منطقة بولاق الآن.

(٣) قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر من الفتح حتىٰ نهاية المماليك (ص١٨٠).

السبت (١٩ جمادي الأولىٰ)، فوجد في طريقه نحو العشرين ألفـًا من العامة، قد صبغوا خِرقـًا بالأزرق والأصفر، ورفعوها علىٰ الجريد، وتعالت أصواتهم بالشعارات الدينية، وطالبوا السلطان بالتشديد علىٰ الذميين، وعدم نصرته عليهم. وحينئذ خاف السلطان الفتنة، وتدبر الموقف، وجنح إلي مداراة العامة، وأصدر علي الفور عددًا من الأوامر بالتضييق علىٰ اليهود والأقباط في الزي والمظاهر الأخرىٰ في الحياة اليومية[١]، وغُلِّقت الكنائس والأديرة، وتجرأت العامة علىٰ الأقباط، مما اضطروهم إلىٰ أن يتركوا المشي في الطرقات، وأسلم منهم جماعة كثيرة، واعترف بعضهم علىٰ راهب بدير الخندق[٢] أنه كان ينفق المال في عمل النفط للحريق، ومعه أربعة، فقُبض عليهم، وعوقبوا بالتسمير[٣] بعد أن اعترفوا بتمويل تلك الحرائق[٤].

ثم نودي في الناس بالأمان، «وذلك أنهم كانوا قد تخوفوا علىٰ أنفسهم لكثرة ما أوقعوا بالأقباط، وزادوا في الخروج عن الحدّ»، فاطمأنوا، وخرجوا علىٰ العادة إلىٰ جهة الميدان.

تعليق: هكذا تمخَّضت هذه الفتنة عن خسارة كبيرة في الأرواح والممتلكات، وأدق ما يُعبَّر به عن الخسائر التي نتجت عن هذه الفتنة الكبرىٰ، وما تركته الحرائق

---

(١) ذكر النويري نص المرسوم في (نهاية الأرب في فنون الأدب ٣٣/ ١٦-١٧).

(٢) **دير الخندق:** موضعه بظاهر القاهرة من الجهة البحرية. عمَّره القائد جوهر الصقلي، عوضا عن دير هدمه داخل القاهرة، بالقرب من الجامع الأقمر، ثم هدم دير الخندق في (شوّال سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م)، في أيام السلطان المنصور قلاوون، ثم جُدّد بعد ذلك، وعمل كنيستين (المقريزي: الخطط ٤/ ٤٣٣). وذكر محمد رمزي في تعليقاته علىٰ (النجوم الزاهرة ٩/ ٧١) أن هذا الدير الذي تجدد كنيسة هو الآن باسم كنيسة «دير الملاك» بشارع الملك بالقاهرة.

(٣) **التسمير:** نوع من العقوبة، وهي تعني دقَّ بعض أعضاء المذنب في لوح من خشب، بواسطة مسامير غلاظ، وأحيانا يوضع وهو بهذه الصورة علىٰ جمل ليشهر به في القاهرة، فإذا حصلت له شفاعة نزعت المسامير من جسده، وإلَّا ينتهي أمره إلىٰ توسيطه، أي ضربه بواسطة السيف بقوة قرب وسطه أسفل السرة، فينقسم جسمه إلي نصفين (د. علاء طه رزق: السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك ص١٥١).

(٤) المقريزي: الخطط (٤/ ٤٤٤، ٤٤٧)، السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٣).

من آثار التدمير قول المقريزي - عقب ذكره قائمة طويلة بالخسائر[١] -: « وكانت هذه الخطوب الجليلة في مدّة يسيرة، قلما يقع مثلها في الأزمان المتطاولة، هلك فيها من الأنفس، وتلف فيها من الأموال، وخرب من الأماكن ما لا يمكن وصفه لكثرته، ولله عاقبة الأمور»[٢].

وإذا بحثنا عن أسباب تلك الحرائق المهولة التي وقعت من جانب فريق من الأقباط في القاهرة (سنة٧٢١هـ/ ١٣٢١م) فهي ما تعرضت له كنائسهم من حوادث الهدم، والحرق، ونهب محتوياتها علىٰ أيدي فريق من الغوغاء المتعصبين من عامة المسلمين[٣]، لا دراية لهم بروح الإسلام ومبادئه السمحة التي تأمر بالبر والقسط مع أهل الكتاب، وتنص علىٰ حمايتهم، والوفاء لهم بالعهود[٤].

وقد حسم البَطْرَيرك القضية حينما استدعاه كريم الدين (ناظر الخاص) ليكلمه في شأن الحريق، وأحضر إليه ثلاثة من الرهبان، وأقروا أمامه بما فعلوه، فقال البطريرك: «هؤلاء سفهاء النصارىٰ، قد فعلوا كما فعل سفهاؤكم بالكنائس من غير إذن السلطان، والحكم للسلطان»[٥]. وهذا يعني – كما يقول د. قاسم عبده قاسم – أن

---

(١) سيأتي ذكر الآثار التي نتجت عن هذه الحرائق في المبحث التالي.

(٢) المقريزي: الخطط (٤/ ٤٤٧)، السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٦ - ٢٢٧).

(٣) وقد أكد المقريزي علىٰ ذلك في روايته بقوله: « شاع بين الناس أن الحريق من جهة النصارىٰ، لما أنكاهم هدم الكنائس ونهبها» وذكر أيضـًا أنه لما قُبض علىٰ راهبين من رهبان «دير البغل» - وأقرَّا بأنهما هما اللذان قاما بتدبير وتنفيذ عمليات الحريق - فسَّرا ذلك (كما ورد في إقرارهما) بأنه « لمَّا مرَّ بالكنائس ما كان، حنِق النصارىٰ من ذلك، واتفقوا علىٰ نكاية المسلمين،...» (المقريزي: السلوك ج٢ ق١ ص٢٢٣). وذكر النويري: أن الأقباط الأربعة الذين قبض عليهم وأقروا بأنهم قاموا بذلك - قالوا « نحن فعلنا هذا في مقابلة هدم كنائسنا» (نهاية الأرب ٣٣/ ١١).

(٤) كما في قول الله تعالي: (لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [الممتحنة: ٨]. وكما في قول النبي ﷺ : « أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (سنن أبي داود ٣/ ١٣٦، حديث رقم ٣٠٥٤).

(٥) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٤).

«عناصر معينة فقط من الأقباط هي التي أسهمت في تلك الأحداث، ودبرتها، بينما لم تكن غالبية الأقباط تدري شيئا عن تلك المؤامرات»(١). وبهذا التفسير أخذ «د. جاك تاجر» في تعليقه علي هذه الحادثة فقال: «لسنا في حاجة إلىٰ الإشادة إلىٰ حكمة أولياء الأمور، وكُرْه الأعيان من المسلمين والأقباط لأعمال العنف... إن الأعمال الانتقامية التي قام بها الأقباط قد دبرتها سرًّا رءوسٌ جامحة، كانت تعتقد أنها - بعملها هذا - قد تستطيع أن تقنع الأغلبية بالعودة إلىٰ اعتدالهم في معاملتهم، ولكنَّ استنكار البطريرك كان دليلًا علىٰ أن هذه الأعمال غير مرغوبة لدىٰ الأقباط عامة. وعلىٰ أي حال»(٢).

ومن الضروري التفريق بين عامة الشعب، وأجهزة الدولة المملوكية في التعامل مع مثل هذه الاضطرابات الطائفية. وهذا ما يؤكد عليه «ستانلي ليبول» - في تعليقه علي حوادث الحرائق (سنة ٧٢١هـ/ ١٢٣١م)- بقوله: «غير أنه يجب ألا يَغرُبَ عن بالنا في الوقت نفسه أنه كان هناك إثارة خواطر شديدة من كلا الطرفين، وأن القلاقل كانت تحدث نتيجة غضب الشعب، لا نتيجة تعصب الحُكَّام»(٣).

(٤) الحروب بين المماليك والعثمانيين في أحياء القاهرة:

بعد أن سيطر الجيش العثماني علىٰ بلاد الشام عقب انتصاره علي جيش المماليك في معركة «مرج دابق» (رجب سنة٩٢٢ه/ يوليو١٥١٦م) تقدم نحو الحدود المصرية، وتغلب علىٰ قوة مملوكية بالقرب من «بيسان» في (ذي الحجة ٩٢٢هـ/ ديسمبر١٥١٦م)(٤)، ثم زحف نحو القاهرة في (شهر المحرم سنة ٩٢٣هـ/ يناير١٥١٧م)، ونزل السلطان العثماني «سليم الأول» بجيشه في «الوطاق»(٥) الذي

(١) قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر من الفتح حتىٰ نهاية المماليك (ص١٨١).

(٢) جاك تاجر: أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلىٰ عام ١٩٢٢م (ص٢٠٠).

(٣) ستانلي ليبول: سيرة القاهرة، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، وآخرين، (ص١٩٠).

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور (٥/ ١٢٩).

(٥) **الوطاق**: لفظ تركي بمعني « الخيمة » الكبيرة، أو « المخيَّم » (محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ١٥٥).

نصبه في منطقة «بولاق» مجاوراً للرصيف، فهجم السلطان المملوكي «طومان باي» علي «الوطاق»، وأحاط به، وأطلق فيه النار، فاحترق عددٌ من الخيام، وقتل من الجنود العثمانيين أعداد كبيرة، ثم استمر القتال عدة أيام(١)، وفي أثنائها هجم العثمانيون علي «زاوية» الشيخ عماد الدين في منطقة «الناصرية» بالقرب من «الميدان الكبير»، وأحرقوا البيوت التي حولها، ونهبوا ما فيها من القناديل والحصر، وقتلوا جماعة كبيرة من العوام، وفيهم عدد من الصغار والشيوخ(٢).

وعندما انكسر المماليك أمام العثمانيين في الجولة الرابعة من المعارك داخلَ القاهرة، وهرب السلطان «طومان باي» صبيحة (يوم السبت، ثامن المحرم ٩٢٣هـ/ يناير ١٥١٧م) انتشر الجنود العثمانيون في منطقة «الصَّليبة»(٣)، وأحرقوا «جامع شيخو»، فاحترق سقف الإيوان الكبير، والقبة التي كانت به، وأحرقوا البيوت التي كانت حوله، في «درب ابن عزيز»(٤).

(٥) الظواهر الطبيعية والتغيرات المناخية:

كانت الظواهر الطبيعية - كالصواعق، والعواصف، وارتفاع درجة حرارة الجو - سبباً في إشعال بعض الحرائق في القاهرة.

ففي (ليلة الأحد ٢٩ جمادي الآخرة سنة ٧٧٤هـ/ ٢٦ ديسمبر ١٣٧٢م)(٥) وقعت «صاعقة عظيمة» علي قلعة الجبل، فأحدثت حريقاً هائلاً، استمر عدة أيام، وأدي إلي احتراق عدة أماكن من الدور السلطانية، وعجز الناس عن إطفائه حتىٰ ضاق صدر

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور (٥/ ١٥٣).

(٢) ابن إياس: المصدر السابق (٥/ ١٥٣ - ١٥٤).

(٣) يطلق «**خط الصليبة**» علي نقطة التقاء عدد من الشوارع، هي شارع الصليبة الحالي، وشارع شيخون، وشارع السيوفية، وشارع الركبة. وكلها تتلاقىٰ في نقطة واحدة، علي شكل صليب، ولذلك عرفت بالصليبة، ويقال لها «صليبة الجامع الطولوني» لقربها منه، وهي بقسم الخليفة بالقاهرة (تعليقات محمد رمزي علي النجوم الزاهرة ٩/ ١٦٣، حاشية رقم ٤).

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور (٥/ ١٥٥ - ١٥٦).

(٥) هذا تأريخ المقريزي في السلوك (٢/ ٢٧٧). وأما ابن إياس في بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص١١٢) فيؤرخها في يوم الأربعاء، السابع من جمادي الأولي سنة ٧٧٤هـ/ أكتوبر ١٣٧٢م.

السلطان الأشرف شعبان له، «وتنكَّد غاية النكد» كما عبر ابن إياس[1]، وتردد علي الألسنة أن سبب الحريق « صاعقة سماوية»[2].

وفي ليلة الاثنين (الخامس عشر من رمضان، سنة ٧٧٨هـ/ يناير ١٣٧٧م) شبَّ حريق بمدرسة السلطان الأشرف شعبان، فاحترقت، وكانت لا تزال تحت الإنشاء والتعمير، وأصاب الحريقُ مواد البناء، فأتلفها، وتعطلت المدرسة عدة سنين. وقد عبر المقريزي – الذي أرَّخ الحدث – بما يفيد أن صاعقة سقطت علي هذا البناء فأحرقته[3].

وقد تشتعل بعض الحرائق، ويتوافق ذلك مع هبوب رياح عاصفة تحمل الشرر إلي مسافات بعيدة، فيكون سبباً في اتساعها وانتشارها، كالحريق الكبير الذي وقع أثناء صلاة الجمعة (١٢ صفر٧٥١هـ/ ٢٠ أبريل ١٣٥٠م) في منطقة «البُنْدقانيين»[4] بالقاهرة، وتضم العديد من الأسواق، حيث بدأ محدودا في هذه المنطقة، ثم امتد – بفعل الشرر الذي ألقت به الرياح العاصفة – إلي حوانيت الفقاعيين[5] ودكاكين الرسَّامين[6]، وبعض الأرباع والفنادق المجاورة، ووصل إلي «قيسارية طَشتَمُر»[7]

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص١١٢).

(٢) المقريزي: السلوك (ج٣ ق١ ص٢٠٥)، ابن حجر: إنباء الغمر (١/ ١١)، ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل في ذيل الدول (٢/ ٤٧)، السيوطي: حسن المحاضرة (٢/ ٣٠٤) .

(٣) المقريزي: السلوك (ج٣ ق١ ص٢٧١).

(٤) ذكر المقريزي في (الخطط ٣/ ٥٩) أن «خط البندقانيين» كان قديمـًا إصطبل الجميزة، أحد إصطبلات الخلفاء الفاطميين، فلما زالت الدولة اختط وصارت فيه مساكن وسوق، ومن جملته عدّة دكاكين لعمل قسيّ البندق، فعرف الخط بالندقانيين لذلك.

(٥) يذكر المقريزي أن حوانيت الفقاعين تبلغ نحو العشرين حانوتـًا، وكانت من أنزه ما يرىٰ، مزينة بأنواع الرخام الملوّن، وبها مصانع من ماء تجري إلىٰ فوّارات تقذف بالماء علىٰ ذلك الرخام، حيث كيزان الفقاع مرصوصة فيستحسن منظرها إلىٰ الغاية، لأنها من الجانبين، والناس يمرّون بينهما (الخطط ٣ / ٦١).

(٦) **حرفة الرسامين** الذين يزينون الملابس بالأشكال الزخرفية بالذهب والحرير (المقريزي: الخطط ٣/ ٦١).

(٧) سيف الدين طَشتمُر بن عبد الله الساقي الناصري. كان أحد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون وخواصه. رقاه وولاه نيابة صفد، ثم نقله إلىٰ نيابة حلب عوضـًا ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، وولاه الملك الناصر

و«رَبْع بَكْتَمُر الساقي»[١]، والرَّبْع المجاور لزقاق الكنيسة، إلي أن وصلت إلي بئر الدلاء (بئر زويلة)، فأحرقت ما جاورها من الحوانيت[٢].

وعن تأثير قوة الرياح في انتشار هذا الحريق، وامتداده إلي أماكن جديدة يقول المقريزي: «واتفق هبوب رياح عاصفة، فحملت شرر النار إلىٰ أمد بعيد، ووصلت أشعتها إلىٰ أن رُؤيت من القلعة»[٣]. ويشير ابن إياس في تأريخه لهذا الحريق – إلي «أن النار عملت في البيوت، فاحترق نحو ألف دار، وأعيي الناسَ خمودُ تلك النار، فإنها كانت ليلة شديدة الريح العواصف، فعملت النار في البيوت واشتد الأمر جداً»[٤].

وفي تأريخ ابن إياس للحريق الذي وقع في منطقة بولاق وقت العصر من (يوم الجمعة، أواخر جمادي الآخرة سنة ٨٦٢هـ/ مايو ١٤٥٨م) أشار إلي أن النار اتسعت وشملت أماكن عديدة، « وقام عقيب ذلك ريح أسود عاصف، فهيَّج النار، فاحترق نحو من ثلاثمائة دار، وربوع ودكاكين، وشُوَن، وكان أمراً مهولاً جداً. وقيل: «إن بعض الناس رأىٰ وقت صلاة الجمعة صاعقةً عظيمة نزلت من السماء علي بعض

أحمد نيابة السلطنة. وكان أميرا شجاعًا، كريمًا، كثير الإنعام والصدقات، وأنشأ العديد من المنشآت المعمارية في القاهرة وضواحيها. توفي مقتولاً بسيف الملك الناصر أحمد بالكرك سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/ ١٠١).

(١) بكتمر بن عبد الله الساقي الناصري. كان أولاً من مماليك السلطان بيبرس الجاشنكير، ثم انتقل إلىٰ الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ فحظي عنده، وجعله ساقيًا، وكان لا يفارقه، ولا يخالفه في شيء. وكان بكتمر وافر العقل، قريبًا من الناس، ويسوسهم أحسن سياسة. وقد أنشأ قصرا علىٰ بركة الفيل، وقصرا آخر في سرياقوس، وعمر بالقرافة خانقاه وتربة مليحتين. وتوفيطريق الحجاز سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م (ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٣/ ٣٩٠ – ٣٩).

(٢) المقريزي: الخطط (٣/ ٦٠)، السلوك (ج٢ ق٣ ص٨١٦ – ٨١٧).

(٣) المقريزي: الخطط (٣/ ٥٩).

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٥٣٥ – ٥٣٦).

الأماكن التي ببولاق، فاحترق، ثم عملت النار، واشتد الأمر، حتىٰ جاوز الحدَّ في ذلك» [1].

وقد استفاض ابن تغري بردي في ذكر الخسائر الفادحة التي أحدثها هذا الحريق، وأكد علي أن سبب انتشاره السريع هبوب الرياح القوية، من أول النهار إلي منتصف الليل، وقال: «ولشدة هبوب الريح صارت رياحًا، لأنها بقيت تارة تهب مريسيًا، وهو الأكثر، وتارةً شمالاً، وتارة غير ذلك، من سائر الجهات، فيئس كل من له دار تحت الريح، وتحقق زوالها، وشرع في نقل متاعه وأثاثه، وهو معذور في ذلك»[2].

وفي محاولة لابن تغري بردي لمعرفة الأسباب الحقيقية التي أدت إلي اندلاع هذا الحريق نجده يطرح عدة احتمالات، كان من بينها «صاعقة نزلت من السماء والخطيب علي المنبر، ومنهم من قال: إنها نزلت من جهة السماء نوع شرارة، فاحترق المكان الأول منها. ومنهم من قال: إن الأرض كأنَّ النار تنبع منها. والأقوال كلها علي أن سبب هذه النار آفة سماوية» [3].

وبسبب التغيرات المناخية في أواخر العصر المملوكي: الحريق الذي وقع في (ربيع الأول، سنة ٩١٧هـ/ مايو١٥١١م) عند قنطرة الأمير حسين[4]. وكانت الليلة التي وقع فيها هذا الحريق – وكما يقول ابن إياس – « ليلةَ شَعَثٍ، قام منها ريح عاصف، فاحترق نحوٌ من أربعين داراً»[5].

ومن الحرائق التي وقعت لأسباب طبيعية، ولا علاقة له بالأخطاء البشرية: أن فأرة اجترَّت فتيلة سراج في خُنِّ مركب مشحونة بالبضائع، كانت راسية علىٰ ساحل

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق (ج٢ص٣٤٧).

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ١٢١).

(٣) ابن تغري بردي: المصدر السابق (١٦/ ١٢٢).

(٤) **قنطرة الأمير حسين:** كانت تقع علىٰ الخليج الكبير الناصري، ويتوصل منها إلىٰ بر الخليج الغربي. أنشأها الأمير حسين بن أبي بكر بن إسماعيل الرومي، أواخر سنة ٧١٩هـ، ليصل من فوقها إلىٰ مسجده الذي بناه في حكر جوهر النوبي تجاه الحارة الوزيرية (المقريزي: الخطط ٣/ ٢١٥، ٢٦٢).

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور (٤/ ٢١٧).

مدينة مصر، لتسير إلىٰ بلاد الصعيد، فأحرقت النار جميع ما فيها من البضائع، ثم أحرقت المركب، حتىٰ صارت فحمًا بأجمعها وهي في الماء[1].

ومع كثرة الزلازل التي شهدتها القاهرة في العصر المملوكي، وما تحدثه هذه الزلازل من أضرار بالغة في الأرواح، والمباني، والممتلكات، فلم ترصد المصادر – فيما اطلعنا عليه منها– شيئا من الحرائق التي ربما تقع بسببها.

(٦) الأخطاء البشرية:

تتسبب الأخطاء البشرية في وقوع الكثير من الحرائق، الصغرىٰ والكبرىٰ. وقد رصد المؤرخون عددا من هذه الحرائق التي وقعت في القاهرة المملوكية، بسبب الإهمال، أو الغفلة.

ففي (شهر رجب، سنة ٨٧١هـ/ فبراير١٤٦٧م) نُودي بتزيين القاهرة، للاحتفال بدوران «المَحمَل»[2]، وكان من مظاهر هذا الاحتفال حرق النِّفط، وعمل الصواريخ بـ «الرملة». وعند وصول «المَحمل» إلي قرب القلعة طارت بعض الصواريخ عليها،

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٤ ق٢ ص٨٩٢)، الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان (٣/ ٢٦٠).

(٢) في النصف الأخير من شهر رجب تحتفل القاهرة **بدوران المحمل**، وهو الهودج الذي يوضع علي ظهر الجمل، وتوضع عليه الكسوة من الحرير النفيس المطرز بالذهب والقصب في هيئة لطيفة، ويبدأ الموكب من عند باب النصر، وأمامه الوزير، والقضاة الأربعة، والمحتسب، والشهود، وناظر الكسوة وغيرهم، وجماعة من المماليك السلطانية الرمَّاحة، وهم في ملابس الحرب، وفي أيديهم الرماح. ويُدار بالمحمل من قبيل العرض الشعبي في الأحياء الكبيرة حتىٰ يصل إلي القلعة، ثم ينصرف بعد ذلك إلي الفسطاط. وهذه العادة كانت شائعة في مصر المملوكية، وتحدث في شهر رجب، ويطلق عليها « دوران المحمل الرجبي»، وأول من استحدثها في مصر هو السلطان الظاهر بيبرس (سنة٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م)، والمراد منه إعلام الناس أن الطريق من مصر إلي الحجاز آمن، فمن شاء الحج فلا يتأخر، ولا يتخوف الطريق. وعند الاحتفال بدوران المحمل ينادي في الناس قبل موعده بثلاثة أيام أن يزينوا بيوتهم وحوانيتهم. وفي الليلة المحددة للاحتفال يحرق النفط وتعمل الصواريخ، ويخرج الناس للفرجة (د. سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص١٨٠-١٨٣، ص١٩٠، محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ١٣٦).

فأحرقت سقف الإصطبل، واستمرت فيه النار ساعةً حتي طِفِئت[١]. ومن المُحتمل أن ذلك حدث بسبب إهمال بعض الأفراد المسئولين عن هذه الألعاب النارية.

وفي (ليلة ٢٩ رجب سنة ٨٩١هـ/ ٣٠ يوليو ١٤٨٦م) احترق أعظم بيوت «الروضة»[٢]، وهو بيت «ابن أَقْبُغا آص»[٣]، وكان القاضي «ابن الشحنة»[٤] يقيم فيه علي سبيل العارية. وقد نُسب إليه تقصيرٌ كبيرٌ في الحفاظ علي البيت، وتردد كلام في تغريمه. ولم يذكر السخاوي الذي أرَّخ لهذا الحدث وَجْه التقصير الذي اتُّهم به ابن الشحنة [٥].

وفي (جمادىٰ الآخرة، سنة ٨٩٩هـ/ مارس١٤٩٤م) وقع «حريق مَهول» – كما يصفه ابن إياس – في القلعة، فاحترقت حواصل السلطان المجاورة لقاعة «البحرة»، وكانت تحتوي علىٰ خيام كثيرة، فاحترق غالبها، واستمرت النيران ثلاثة أيام، وشارك السلطان بنفسه في إطفائها. وقد أشيع أن سبب هذا الحريق يعود إلىٰ نار اشتعلت في

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور (٢/ ٤٤٧).

(٢) **الروضة:** تُطلق علىٰ الجزيرة التي تقع بين مدينة مصر (الفسطاط) ومدينة الجيزة، وبها كانت دار صناعة السفن الحربية، ومقياس النيل. وأنشأ فيها الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة الصالحية، وعمل لها ستين برجـًا، وبنىٰ فيها الدور والقصور، وجامعـًا، وغرس بها جميع الأشجار، وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب، وما يحتاج إليه من الغلال والأقوات، وأسكن فيها معه مماليكه البحرية، وعددهم نحو الألف مملوك (المقريزي: الخطط ٣/ ٣٢١- ٣٢٢).

(٣) هو الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير علاء الدين آقبغا آص. ولّاه الملك الأشرف شعبان وظيفة «شد الدواوين» بإمرة عشرة (وهي وظيفة يكون صاحبها رفيقـًا للوزير، متحدثـًا في استخلاص الأموال)، وتولي أستاداراً بتقدمة ألف، ثم صودرت أمواله، وعوقب عقوبة شديدة. وكان سيء السيرة. توفييوم الأربعاء (١٨) شوال سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ١٣٦ -١٣٧، القلقشندي: صبح الأعشىٰ ٤/ ٢٢).

(٤) ابن الشحنة: عبد البر بن محمد بن محمد، أبو البركات، سري الدين، المعروف بابن الشحنة. قاض، فقيه، حنفي. له نظم ونثر. ولد بحلب، وانتقل إلىٰ القاهرة. وتولىٰ قضاء حلب ثم قضاء القاهرة، وصار جليس السلطان الغوري وسميره. وصنف كتبا، وتوفي بالقاهرة سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م (الزركلي: الأعلام ٣ / ٢٧٣).

(٥) السخاوي: وجيز الكلام في الذيل علي دول الإسلام (ص ٩٧٨).

مطبخ منزل الخليفة، وكان ساكنا بالقلعة داخلَ حوش، بجوار قاعة البحرة، ومن هنا امتدت النار إلي حواصل السلطان. وهذا يعني أن خطأً ما وقع في مطبخ الخليفة أدىٰ إلي الاشتعال. إلا أن ابن إياس في تعليقه علىٰ الحدث ينفي أن يكون هذا هو سبب الحريق، ويؤكد علىٰ أن ذلك إشاعة، وباطل ليس له صحة، « وإنما ذلك كلام أعداء الخليفة» (١).

وقد كثرت الحرائق بالقاهرة في أواخر (سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م)، « وصار في كل ليلة يحترق عدة أماكن، بسبب الدِّريس(٢) » (كما يقول ابن إياس)(٣). ولهذا السبب أيضا تكررت هذه الحرائق في (ذي القعدة سنة ٩١١هـ/ مارس ١٥٠٦م)، واحترقت عدة أماكن. وكان المماليك الأتراك يكثرون من تخزين «الدِّريس» في بيوتهم. وكانوا يأتون بالعوام من الناس غصبا، ويحبسونهم عندهم أياما لنقل «الدريس»، «وتعطلت أحوال الناس بسبب ذلك»، وأصبح هذا الفعل من الشهرة بحيث كان العوامُّ يتندَّرون في مجالسهم، ويقولون – وهم يرقصون – «اهرب يا تعيس، وإلا يحملوك الدريس»(٤).

ومن المحتمل أن يكون كثرة الكميات المُخزَّنة من الدريس – مع عدم الحيطة في طريقة وأماكن التخزين – أدت إلي اشتعال هذه الحرائق. وقد يعود السبب إلي ما يقوم به هؤلاء المماليك من إكراه العوام علي عمليات النقل والتخزين، وتعطيل مصالحهم من أجل استخدامهم في ذلك، مما قد يدفع بعضهم إلي الانتقام. وربما يؤيد هذا التفسير حادثة حريق مشابهة وقعت في ذي القعدة من السنة التالية (٩١٢هـ/ ١٥٠٦م)، حيث اشتعلت النار في مخازن «الدِّريس» التي يملكها الأمير

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ٣٠١).

(٢) **الدريس:** هو يابس البرسيم (المعجم الوسيط : درس).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (٤/ ٣٠).

(٤) ابن إياس: المصدر السابق (٤/ ٣٠، ٩٢).

«طراباي» (رأس نَوْبة النُّوَب) [1]، فاحترقت عن آخرها. وقد أدلي بعض الجيران بشهادتهم في هذا الحادث، وذكروا أنهم رأوا رجلاً فلاحًا يلقي بالنار علي «الدريس»، وكان يعمل بالقرب من المكان في بناء «عمارة» مع بعض «الفُعَلاء»[2].

وفي (شهر رجب سنة ٩١٣هـ/ نوفمبر ١٥٠٧م) تجمَّع عدد كبير من الناس في مولد الشيخ «سويدان المجذوب»، في مدرسة «ابن الزمن» ببولاق، بالقرب من «الرَّصيف»، وفي هذا المكان نُصبت خيام كثيرة، وبينما تقوم امرأة بالطبخ علي شاطئ النيل طارت منها شرارة، فتعلقت بمركب كان راسيًا علي الشاطئ، ويحمل الكتَّان، فاشتعلت فيه النيران، ثم امتدت – بفعل ريح عاصف في تلك الليلة – إلي «شُونة» تِبْن[3]، و«معصرة» قَصَب قريبة من المركب، ونهَبَ الناسُ ما في المعصرة من قصب، وسكر، وعسل[4].

ومن مظاهر الإهمال الذي تسبب في إشعال الحرائق: حادثة الحريق التي يؤرخ لها ابن إياس في (ربيع الأول، سنة ٩١٩هـ/ مايو ١٥١٣م)، وهي أن جماعة من صُناع البارُود[5] دخلوا «الزَّرْدخاناه»[6] بالقلعة، وفي أثناء عملهم في صحن البارود تطاولت

(١) يُطلق مصطلح «**أرباب النَّوْبة**» علىٰ الذين يقومون بحراسة حجرة السلطان، وعند خروجه للمواكب، في نوبات معينة مقسمة بينهم، وعددهم خمسة وعشرون، ولهم رؤساء يسمون «رؤوس نُوَب» – جمع «رأس نوب»، وهم أربعة من الأمراء، واحد مقدم ألف، وثلاثة طبلخانات، ولهم رئيس يسمي «رأس نَوبة النُّوب»، أو «رأس نوبة الأمراء»، أي أعلاهم. وكان يحتل مكانة كبيرة في البلاط المملوكي، ويدخل في مهامه الإشراف علي المماليك، ومراقبة سلوكهم، وتنفيذ أوامر السلطان فيهم (القلقشندي: صبح الأعشىٰ ٤/ ١٨، ٥/ ٤٥٥، ١٣/ ١٠٢، د. عبد المنعم ماجد: نُظم دولة سلاطين المماليك ٢/ ٥٣ -٥٤).

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور (٤/ ١٠٧ – ١٠٨).

(٣) **الشونة**: عبارة عن مخزن، لخزن الغلال، والأحطاب، والأتبان. وكان بطريق الفسطاط شونتان عظيمتان مملوءتان بالتبن، وينفق منها للاسطبلات والمواشي الديوانية (القلقشندي: صبح الأعشي ٣/ ٤٧٥).

(٤) ابن إياس: المصدر السابق (٤/ ١١٤).

(٥) **البارود**: مادة مشتعلة، تُحدث دَويًّا (فرقعة) ذات لهب، وشديدة الانفعال. وكانت تستخدم في المكاحل (المدافع). وقد وصل العلماء في القرن (١٣م) إلىٰ كشف المواد التي يتألف منها البارود (د. عبد الرحمن زكي: ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية في ضوء ما كتبه في كتاب بدائع الزهور، ضمن كتاب

النار إلي سقف «الزَّردخاناه» وانتشرت فيه، وتصاعد منها دخانٌ كثيف رآه السلطان وهو جالس في شباك «الأشرفية»، فترك المكان واختفي من كثافة الدخان، واحترق ثلاثة من الصنَّاع، وماتوا بسبب هذا الحريق[٢].

وتكررت هذه الحادثة في (شهر صفر من العام التالي ٩٢٠هـ/ مارس ١٥١٤م)، حيث احترق جماعة من صُناع البارود، وهم يقومون بصحن البارود، وكانوا على ظهر «قِلع غِراب» (وهو سفينة حربية مدببة الحيزوم، ذات أشرعة ومجاديف)[٣]، واشتعلت فيه النار، فأحرقته عن آخره[٤].

وقد يكون عدم اتخاذ الاحتياطات اللازمة عند صحن البارود هو الذي أدي إلي اشتعال مثل هذه الحرائق.

(٧) حرائق مجهولة الأسباب:

لقد أمدتنا المصادر- فيما اطلعنا عليه منها- بأخبار عدد كبير من الحرائق التي وقعت في القاهرة زمن المماليك، دون رصد لأسبابها، وتكتفي فقط بذكر الحريق، إجمالا أو تفصيلا، وتحديد مكانه، ومدى انتشاره، وما خلَّفه من خسائر في المباني والممتلكات العامة أو الخاصة. وقد يكون عدم ذكر سبب الحريق يعود إلى عدم معرفة المؤرخ به، أو ربما يقف عليه، لكنه يُعرض عن ذكره، إما لأن السبب قد غمض

«ابن إياس: دراسات وبحوث»، ص١٠٥). وذكر القلقشندي «مكاحل البارود»، وعرَّفها بأنها: المدافع التي يُرمى عنها بالنفط، وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد من زنة عشرة أرطال بالمصري إلى ما يزيد على مائة رطل (صبح الأعشى ٢/ ١٣٧).

(١) **الزَّردَخاناه**: معناه «بيت الزرد»، وهو الخزانة المخصصة لحفظ السلاح والعتاد الحربي، كالسيوف، والقسي، والنُّشَّاب، والرماح، والدروع، وغيرها. ويُطلق على صانع ذلك «الزردكاشي » (القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ١١، محمد أحمد دهمدان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص٨٦).

(٢) محمد أحمد دهمدان: المرجع السابق (ص١١٥).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (٤/ ٣٦٦).

(٤) ابن إياس: المصدر السابق (٤/ ٣١٤).

عليه، أو لم يتأكد له، أو لاشتهاره بين الناس، فلا يحتاج إلىٰ ذكره، أو لعدم أهميته، خاصة إذا كان يتعلق بخطأ بشري. وفيما يلي عرض مختصر لأبرز هذه الحرائق [1]:

في (يوم الجمعة ٢٤ صفر سنة ٦٩١ه/ ١٥ فبراير ١٢٩٢م)- وأرخه البعض في الرابع والعشرين من المحرم- وقع حريق عظيم في قلعة الجبل، فاحترقت بعض الخزائن، وأتلف الحريق شيئا كثيرا من الذخائر، والنفائس، والكتب[2].

وفي (التاسع عشر من شهر شعبان، سنة ٧١٥هـ/ مايو ١٣١٥م) وقعت نار في البرج المنصوري من قلعة الجبل، وطباق الجَمَدَارية[3]، فأحرقت شيئا كثيرا. وهذا ما ذكره المقريزي في (السلوك)[4]، وزاد الصَّفدي العباسي في (نزهة المالك والمملوك) أن النار صفت، واحمرَّت، وبلغت الأفق، فأحرقت أربع طباق، وانطفأت، وكانت

(١) للاطلاع علىٰ مزيد من المعلومات عن هذه الحرائق يرجع إلىٰ: المقريزي: السلوك (ج٢ ق٢ ص٥١٤)، (ج٢ ق٣ ص ٨١٨)، (ج٣ ق١ ص١٥٨)، (ج٣ ق٢ ص٤٩٢، ص٩٠١)، الخطط (٣/ ٦٣، ٣٧١)، تاريخ ابن الوردي (٢/ ٢٨٤)، ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٢ ص ٣٩٥) (ج١ ق٣ ص٢٥٠)، ابن حجر: إنباء الغمر (٣/ ٨)، السخاوي: وجيز الكلام في الذيل علىٰ دول الإسلام (ص ١٦٣، ٩٧٨)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق١ ص٧٥)، (ج١ ق٢ ص٣٣١).

(٢) المقريزي: السلوك (ج١ ق٣ ص ٧٧٧)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٨/ ٣٣)، العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (١/ ٢٣٤)، ابن كثير: البداية والنهاية (١٣/ ٣٨٥)، النويري: نهاية الأرب (٣١/ ١٤٢)، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (٢/ ٢٩٧).

(٣) **الجَمَدَارية**: كلمة «جَمَدَار» - أو جامادار - مكونة من «جامة» بمعنىٰ اللباس، و« دار» بمعنىٰ المسؤول. وقد شاعت في العهد المملوكي للدلالة عن المسؤول عن لباس السلطان. كما يدل المصطلح أيضا علي فرقة من الحرس السلطاني (القلقشندي: صبح الأعشي ٥/ ٤٥٩، حسن حلاق: معجم الألفاظ التاريخية الأيوبية والمملوكية والعثمانية، ص٦٧).

والطباق: جمع طبقة، وهي ثكنات الجيش المملوكي بالقلعة، حيث كان لكل طبقة من أبناء الجنس الواحد من المماليك طباق. وبلغ عددها اثني عشر طباقا، أو أكثر، وكان بعضها يشغل مساحة كبيرة، كأنه حيٌّ بأكمله، يحتوي علي ألف مملوك. وقد وصف المقريزي تنظيم تلك الطباق، وأدوار تربية المماليك بها وصفا تفصيليا (المقريزي: الخطط ٣/ ٣٧٢ – ٣٧٣، عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ١/ ١٥).

(٤) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص١٥٧).

الطباق التي احترقت هي التي رسم السلطان بهدمها، وإضافتها إلي طباق البرج الجديد[1].

ومن الحرائق التي تعرضت لها القاهرة وصمتت المصادر عن بيان أسبابها: الحريق الكبير الذي وقع في منطقة «البُندقانيين» بدءًا من (يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ٧٥١هـ/ ٢٠ مايو ١٣٥٠م)، واستمر لمدة أيام، وامتد بسرعة هائلة إلىٰ أماكن أخرىٰ بسبب وجود رياح قوية وافقت اشتعاله، والتصاق المباني، وأتىٰ علىٰ كثير من الأسواق والبيوت، وبُذل في إطفائه جهود كبيرة من الأمراء والأهالي للسيطرة عليه[2]. وقد أشار المقريزي إلىٰ أنه وجد في بعض المواضع التي أصابها الحريق « كعكات زيت» و«قطران»، ووُجد في بعضها «نُشَّابة» في وسطها «نفط»، ولم يُعرف من فعل ذلك[3]. ولعل هذه الدلائل تشير إلىٰ أن هذا الحريق كان مُتعمَّداً.

وفي (ليلة الأحد ٢٥ محرم ٧٨٠هـ/ ٢٤ مايو ١٣٧٨م) شب حريق كبير في منطقة دار التفاح[4]، خارج باب زويلة، وامتدت النيران إلىٰ رَبع الدهيشة[5] تجاه باب زويلة،

(١) الصفدي (العباسي): نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك (٢٢٦ - ٢٢٧).

(٢) المقريزي: المصدر السابق (ج٢ ق٣ ص٨١٧ - ٨١٨)، الخطط (٣/ ٦٠)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص ٥٣٥-٥٣٦).

(٣) المقريزي: السلوك (ج٢ ق٣ ص ٨١٨).

(٤) دار التفاح: يعرفها المقريزي في (الخطط ٣/ ١٧٠) بأنها فندق تجاه باب زويلة، أنشأها الأمير طقز دمر بعد سنة ٧٤٠هـ، ووقفها علىٰ خانقاه بالقرافة. ويرد إليها الفواكه علىٰ اختلاف أصنافها، مما ينبت في بساتين ضواحي القاهرة، من التفاح، والكمثري، والسفرجل، ومنها ينقل إلىٰ سائر أسواق القاهرة ومصر ونواحيهما. وبظاهر هذه الدار عدّة حوانيت تباع فيها الفاكهة التي يتأنق الباعة في تنضيدها، واحتفافها بالرياحين والأزهار. وما بين الحوانيت مسقوف حتىٰ لا يصل إلىٰ الفواكه حرّ الشمس.

(٥) لعله الربع القريب من قاعة الدهيشة المجاورة للدور السلطانية بقلعة الجبل، وهي التي أنشأها السلطان عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون (سنة ٧٤٥ه)، وأنفق عليها خمسمائة ألف درهم، وعمل لها من الفرش والبسط والآلات ما يفوق وصفه (المقريزي: الخطط ٣/ ٣٦٩، السلوك ج٢ ق٣ ص ٦٣٢ - ٦٣٣).

وأحرقت سوق الفاكهانيين، والبقليين، والبراذعيين(١)، ووصلت إلىٰ «الموازيين»، وكان عدة ما احترق من البيوت نحو خمسمائة دار، ومثلها دكاكين. وقد منع وجود سور القاهرة امتداد النار إلىٰ أماكن أخرىٰ، حيث بقي الحريق مشتعلا مدة يومين - وقيل ثلاثة أيام متوالية - رغم جهود أربعة أمراء من كبار رجال الدولة ومعهم مماليكهم في إطفائه (٢).

وهذا الحريق يؤرخه ابن إياس، والقلقشندي (سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، وقالا عنه: « وفي أوائل هذه السنة وقع حريق عظيم بدار التفاح، خارج باب زويلة لم يُسمع بمثله»(٣). ولعله حريق آخر غير المذكور قبله.

وفي (شهر صفر ٧٨٠هـ/ مايو ١٣٧٨م) وقع حريق خارج باب النصر(٤)، (أحد أبواب القاهرة)، وحريق آخر تجاه اليانسية(٥) خارج باب زويلة، ووقع ذلك في ليلة واحدة، وقد اشتدت النار، وأعيىٰ الناس إطفاؤها (١).

---

(١) الفاكهيون: الذين يبيعون الفاكهة. والبقليون: الذين يبيعون الفستق، واللوز، والزبيب، ونحوه. والبراذعيون: الذين يصنعون البرادع، وهي سروج الحمير. ويستفاد من كلام المقريزي أن هذه الأسواق الثلاثة تقع خارج باب زويلة، بالقرب منه. ويحدد محمد رمزي في حواشيه علي النجوم الزاهرة (١١/ ١٦٦) أن سوق الفاكهيين، والبقليين يقعان بشارع تحت الربع، تجاه جامع المؤيد. وكان البراذعيون بشارع الدرب الأحمر، من أوله، جهة باب زويلة.

(٢) المقريزي: السلوك (ج٣ ق١ ص٣٢٨)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١١/ ١٦٦)، ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر (١/ ٢٦٣)، السخاوي: وجيز الكلام (ص ٢٣٨)، ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٢ ص ١٣٧-١٣٨)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٢٢١)، السيوطي: حسن المحاضرة (٢/ ٣٠٥).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٢٢١). القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة (١/ ٢٥٤).

(٤) باب النصر: ذكر المقريزي أن هذا الباب كان أولاً دون موضعه اليوم، وأنه أدرك قطعة من أحد جانبيه، كانت تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربي، ولما تقلد أمير الجيوش بدر الجمالي وزارة المستنصر الفاطمي، وعمر سور القاهرة، نقل باب النصر من حيث وضعه القائد جوهر، إلىٰ حيث هو الآن، فصار قريبًا من مصلىٰ العيد (الخطط ٢/ ٢٤١). وموضعه اليوم تجاه زاوية القاصد الواقعة بشارع باب النصر، بين مدخل حارة العطوف وجامع الشهداء (تعليقات محمد رمزي علي النجوم الزاهرة ٤/ ٨٣ حاشية ٣).

(٥) اليانسية: تعرف بطائفة من طوائف العسكر يقال لها «اليانسية» منسوبة لخادم من خدام العزيز بالله الفاطمي، يقال له «أبو الحسن يانس الصقلي»، وهو أرمني الجنسية (المقريزي: الخطط ٣/ ٣٣). وقد ذكر

وفي يـوم الأحـد (٣٠ صـفر ٧٨٨هــ/ ٢ أبريـل ١٣٨٦م) وقـع حريـق في «بركـة الرَّطلىٰ»[٢] عند الجسر، بالقرب من قنطرة الحاجب [٣]، أدىٰ إلىٰ احتـراق وإتـلاف عـدة بيوت، واستطاع عدد من الأمراء التغلب عليه وإطفاءه [٤].

وفي ليلة الأربعاء (٤ صفر ٨٠١هـ/ ١٦ أكتـوبر ١٣٩٨م) انـدلع «حريـق عظيـم» بظاهر «المدرسة الصالحية» [٥]، فأسرع الأمراء إلىٰ إطفائه، لكنَّ الحريقَ أصاب أماكن كثيرة، واحترقت فيه عدة بيوت [٦].

وفي شهر شوال من السنة نفسـها (٨١٦ه/ مـايو ١٤١٣م) تعـدد وقـوع الحريـق في أماكن عديدة بالقاهرة، وكـان منهـا احتـراق غـلال كثيـرة بمنطقـة «شـيبين القصـر»، - بضواحي القاهرة - « وكان إذ ذاك وقت الدِّراس»[١].

علي مبارك في (الخطط التوفيقية ٢/ ٢٨٩- ٣٨٠) أن درب اليانسية يقع تجاه جامع أقماس بشارع الدرب الأحمر.

(١) المقريزي: السلوك (ج٣ ق١ ص٣٢٩)، ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٢ ص١٣٨)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٢٢٣).

(٢) **بركة الرطلي**: تقع في الجهة البحرية من القاهرة، غربي جامع الظاهر بيبرس، علي يمين السالك من طريق العباسية إلي الخليج الكبير. وكانت من جملة أرض الطبالة، وعرفت ببركة الطوّابين، لأنه يصنع فيها الطوب. وعرفت أيضا ببركة الحاجب، لأن الأمير بكتمر الحاجب أجري الخليج الناصري من جوارها، فدخل إليها الماء. وسميت بركة الرطليّ، نسبة إلىٰ رجل كان موجودا بها يصنع أرطال الموازين. وقد تلاشىٰ أمرها سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م (المقريزي: الخطط ٣/ ٢٨٧، علي مبارك: الخطط التوفيقية ٣/ ٢٦٤).

(٣) **قنطرة الحاجب**: ذكر المقريزي أن هذه القنطرة تقع علىٰ الخليج الناصري، يُتوصل إليها من أرض الطبالة، ويسير الناس عليها إلىٰ منية السيرج. أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م (المقريزي: الخطط ٣/ ٢٦٨).

(٤) المقريزي: السلوك (ج٣ ق٢ ص٥٤٢)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٣٦٩).

(٥) **المدرسة الصالحية**: تقع بخط بين القصرين تجاه الصاغة من القاهرة. أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب في ١٣ ذي الحجة سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م، ورتب فيها دروسـًا أربعة لفقهاء المذاهب الأربعة في سنة ٦٤١ه/ ١٢٤٣مـ، وهو أول من عمل بديار مصر دروسـًا أربعة في مكان (المقريزي: الخطط ٤/ ٢١٧).

(٦) المقريزي: السلوك (ج٣ ق٢ ص٩١٨) ابن حجر: إنباء الغمر (٢/ ٣٨).

وفي الشهر نفسه من السنة المذكورة احترق بيت برهان الدين المحلي(٢) كبير التجار، ويقع على شاطئ النيل، داخل صاغة الفاضل، وأنفق عليه خمسين ألف دينار(٣). ويصف ابن حجر هذا البيت بقوله: « كان أعجوبة الدهر في إتقان البناء، وكثرة الرخام والزخرفة والمنافع الكبيرة من القاعات والأروقة، فاحترق جميعه، وسلمت المدرسة التي بجواره، وهي من إنشاء المحلي أيضا»(٤).

ويذكر ابن إياس في أحداث شهر ربيع الآخر سنة ٨٨١هـ/ أغسطس ١٤٧٦م) وقوع حريق عظيم بباب السلسلة (٥)، واحترق بسببه عدد ستة من خيول السلطان الخاصة، كما أدى إلى هدم جانب كبير من سور السلسلة، ولم يستطع المماليك التغلب على إطفائه (٦). وقد أرَّخ السخاوي لهذا الحريق، وذكر أنه وقع بالاصطبل السلطاني، وتم تداركه قبل استحكامه(٧).

---

(١) ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٤ ص ٣٣١)، المقريزي: السلوك (ج٤ ق٢ ص٨٩٢)، ابن حجر: إنباء الغمر (٣/ ٥٠١)، ابن إياس: بدائع الزهور (٢/ ١٤٨).الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان (٣/ ٢٦٠).

(٢) إبراهيم بن عمر بن علي، التاجر الرئيس، برهان الدين المحلي. انتهت إليه رئاسة التجار في زمانه، وبلغ من الحظ في المتجر وسعة المال إلى الغاية، وعظمت منزلته عند الدولة بالقاهرة، وكان كثير الخير والمعروف، ومن أعماله أنه جدد عمارة جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه، وجهز عسكراً إلى الاسكندرية من ماله لقتال الفرنج سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م. توفي في ربيع الأول سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣ملا(السخاوي: الضوء اللامع ١/ ١١٢- ١١٣، ابن تغري بردي: المنهل الصافي ١/ ١٣٠- ٢٤).

(٣) ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٤ ص٣٣١)، ابن إياس: بدائع الزهور (٢/ ١٤٨).

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر (٣/ ٥٠٠-٥٠١)، وقد أرخ هذا الحريق في شهر شعبان.

(٥) باب السلسلة: أحد أبواب قلعة الجبل، الموجود حاليا بميدان صلاح الدين، وعرف قديما باب الاصطبل، وباب الميدان ويُتوصل منه إلى الاصطبل السلطاني (المقريزي: الخطط ٣/ ١٣٢، تعليقات مجمد رمزي على النجوم الزاهرة ٩/ ٩٩).

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ١٢٠).

(٧) السخاوي: وجيز الكلام (ص٨٧١).

وفي ليلة (الثاني عشر من رجب سنة ٨٩١هـ/ ١٣ يوليو١٤٨٦م) شب حريق هائل في « السبع قاعات »[1]، بالقرب من البيت الذي جدَّده « الصلاحي العالمي ابن الجيّعان »[2]، وامتد هذا الحريق حتىٰ وصل إلىٰ «الديوان» وغيره من الأماكن، « وتلف فيه شيء جزيل، ولولا دفع الله لكان الأمر أشد، والابتلاء أزيد» كما يقول السخاوي [3].

❁ ❁ ❁

---

(١) **السبع قاعات**- أو القاعات السبع-: عمَّرها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وخصصها لسراريه، وهي تشرف علىٰ الميدان وباب القرافة أحد أبواب سور القاهرة (المقريزي: الخطط ٣/ ٣٧٠). وذكر (محمد رمزي في تعليقاته علي النجوم الزاهرة ٩/ ١٨١) أن هذه القاعات مكانها اليوم سرايا الجوهرة الواقعة في الزاوية الجنوبية الغربية بالقلعة.

(٢) هو أبو المعالي صلاح الدين محمد بن يحيىٰ بن شاكر بن عبد الغني بن الجيعان، أحد أفراد بيت ابن الجيعان، وهم بيت علم وسؤدد، ومن أهل الحل والعقد في الدولة. ولد في رمضان سنة ٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م وكان له عناية بالفقه والحديث. وتميز في الفضائل، علي عادة بيته في التواضع ومزيد الأدب، مع جودة الخط والفصاحة. وولاه السلطان قايتباي «نيابة كتابة السر» عقب وفاة أخيه أبي البركات، وأضاف إليه «استيفاء الجيش»، بعد موت أخيه أبي البقاء سنة ٩٠٢هـ (السخاوي: الضوء اللامع ١٠/ ٧١ -٧٢، ابن إياس: بدائع الزهور ٣/ ٣٦٣).

(٣) السخاوي: وجيز الكلام في الذيل علىٰ دول الإسلام (ص٩٧٨).

المبحث الثاني

أثر الحرائق على المنشآت العمرانية والحالة الاقتصادية والاجتماعية لسكان القاهرة

تركت الحرائق التي وقعت في القاهرة إبان عصر المماليك العديد من الأضرار والآثار السلبية في كافة الجوانب، العمرانية، والاقتصادية، والاجتماعية، فقد كانت سببًا رئيسيًا في تدمير كثير من المنشآت العمرانية، كالبيوت، والأرباع، والأسواق، والحوانيت، والقيساريات، وعدد من المدارس، والمساجد، والكنائس، إضافة إلي العديد من ممتلكات الدولة ومؤسساتها. وكان لبعض هذه الحرائق من القوة والانتشار بحيث دمرت أحياءً كاملة، وأزالت معالم عمرانية متلاصقة.

كما أثرت هذه الحرائق علي الأوضاع الاقتصادية، نتيجة تضرر بعض المنشآت التجارية، والصناعية، والمحاصيل الزراعية، وإتلاف كثير من الأموال والممتلكات، ووقوع حالات من السلب والنهب، وتحوُّل المتضررين بالحريق إلي الفاقة والفقر، بفقد أموالهم، واحتراق متاجرهم وبيوتهم. كما كان لهذه الحرائق تأثير مباشر علي حياة الناس الاجتماعية، حيث أدت إلي موت الكثيرين، وانتشار الخوف والهلع في النفوس، وهجران البيوت، والنزوح إلي أماكن آمنة، وكان لبعضها كذلك تأثير في وقوع الفتن الطائفية، وإحداث حالة من الفوضىٰ، وعدم الاستقرار في مجتمع القاهرة.

أولا: أثر الحرائق علي المنشآت العمرانية:

كان تأثير الحرائق علي المنشآت العمرانية في القاهرة مباشراً وملحوظًا، ولذا كانت محل اهتمام من المؤرخين، فقد حرصوا علي إبراز الضرر الحاصل في مختلف المنشآت، مثل دور العبادة (المساجد، الكنائس)، وبيوت العامة، والخاصة، والأرباع، والمدارس، والمراكز التجارية (الأسواق، والقيساريات، والحوانيت)، إضافة إلي بعض مؤسسات الدولة وممتلكاتها.

(أ) البيوت والأرباع :

وتُعد بيوت العامة من أكثر المنشآت العمرانية في القاهرة المملوكية عرضة للحريق، نظراً لطابع البناء الذي يساعد علي انتقال النيران بسرعة من بيت إلي آخر، لاسِيَّما عند وجود رياح شديدة، حيث «البيوت متلاصقة»[1]، ومبنية من مواد سريعة الاشتعال، « فتُتلف النارُ ما تَمرُّ به»[2]. وقد يتسع الحريق ويمتد ليدمر رَبْعـًا كاملا يضم مجموعة بيوت متجاورة، أو مبنية فوق الحوانيت والدكاكين التجارية. وقد يمحو الحريق آثار منطقة كاملة، بما فيها من مساكن، وأرباع[3] ، وأسواق ومرافق عامة. وفي القائمة الآتية توضيح لحجم الدمار الذي خلفته الحرائق في بيوت العامة، والخاصة، والأرباع التي احترقت بالقاهرة.

١- حريق حارة الباطلية (سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م): أدي إلي حرق ثلاثة وستين داراً، و«رَبْع فَرَج»، والناحية المطلة علي النيل من «رَبع العادل»[4].

٢- حرائق القاهرة (عام٧٢١هـ/ ١٣٢١م): احترق «رَبْع الشوايين» في «حارة الديلم»[5] وزقاق العريسة، والمنطقة الواقعة بين «باب زويلة» و«حارة الروم». و«رَبع» الملك الظاهر خارج باب زويلة (ويشتمل علي مائة وعشرين بيتـًا، وتحته قيسارية الفقراء). و« رَبعٌ كبير» فوق «فندق طُرنطاي»[6] خارج باب البحر، مع احتراق الفندق.

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٢ ق٣ ص٨١٦).

(٢) المقريزي: المصدر السابق (ج٢ ق١ ص٢٢١).

(٣) الربع: سبق التعريف بهذا المصطلح.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام (٤٩/ ١٧). اليونيني: ذيل مرآة الزمان (٢/ ٣٢٠).

(٥) حارة الديلم: ذكر المقريزي أنها تقع غربي الجامع الأزهر. وأنها سميت بذلك لنزول الديلم بها، وهم طائفة من الترك الواصلة مع «هفتكين الشرابي» حين قدم إلي مصر ومعه أولاد مولاه (معز الدولة البويهي)، وجماعة من الديلم والأتراك (سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م) فسكنوا بها، فعرفت بهم (الخطط ٢/ ٢٠٧، ٣/ ١٦). وتقع الآن - كما ذكر محمد رمزي في تعليقاته علي (النجوم الزاهرة ٩/ ٦٤) - في المنطقة التابعة لقسم الدرب الأحمر.

(٦) فندق طرنطاي: سبق تعريفه.

كما «احترقت عدة دور لها صُورة» (كما يقوا ابن أيبك الدواداري)[1]. منها ستة عشر بيتًا بجوار بيت كريم الدين (ناظر الخاص). وعدة أماكن بخط بئر الوطاويط، وباصطبل الطارمة، ودرب العسل، وخان الحجر، والجملون[2]، إلي غير ذلك من الأماكن «التي يطول عدُّها» كما يقول المقريزي[3]. وتهدمت أعداد كبيرة من «الدور العظيمة والرباع الكبيرة»[4]. وكان جملة ما احترق البيوت المتجاورت – كما أحصاها النويري – ما يزيد على ثلاثين داراً، يقارب المائة مسكن [5]. ونقل ابن الوردي في تأريخه لهذا الحريق أن رَبع ابن الأيدمري وقعت فيه النار تسعًا وعشرين مرة[6].

٣- حريق خط البُندقانيين (سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م): احترقت دار في منطقة البُندقانيين، ثم اشتد لهيب النار فانتقلت بفعل قوة الرياح إلي البيوت الملاصقة، وتعلقت كذلك بالدور المجاورة لبيت المظفر بيبرس الجاشنكير، وأحرقت رَبْع «بكتمر» (الساقي)، والرَّبع المجاور لدار الجوكندار، واتصلت بزقاق الكنيسة إلي بيت «كريم الدين بن الصاحب أمين الدين»، كما أنها انسحبت إلي «بئر الدلاء» (وكانت تعرف قديمًا ببئر زويلة) فأحرقت ما جاور البئر من الأماكن. إضافة إلي أن القائمين علي الإطفاء قاموا بهدم دور كثيرة للتحكم في الحريق[7]. وذكر ابن إياس أن عدد الدور التي احترقت في هذا الحريق وصل إلي نحو ألف دار[8].

---

(١) ابن أيبك الدوادار: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر– وهو الجزء التاسع من« كنز الدرر وجامع الغرر» (ص ٣٠٦).

(٢) ابن الوردي: تاريخ (٢/ ٣٨٧ – ٣٨٨) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٠-٢٢٢)، المواعظ والاعتبار (٤/ ٣٠١–٣٠٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٣- ٧٠).

(٣) المقريزي: الخطط (٤/ ٤٤٧).

(٤) المقريزي: المصدر السابق (٤/ ٤٤٣).

(٥) النويري: نهاية الأرب (٣٣/ ١٠).

(٦) تاريخ ابن الوردي (٢/ ٣٨٨).

(٧) المقريزي: السلوك (ج٢ ق٣ ص٨١٧)، الخطط (٣/ ٦٠).

(٨) ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٥٣٥ -٥٣٦).

٤- حريق دار التفاح بظاهر باب زويلة (ليلة الأحد ٢٥ ذي الحجة ٧٧٩هـ/ ٢٣ أبريل ١٣٧٨م): استمرت النار في الاشتعال ثلاثة أيام، وأحرقت نحو خمسمائة دار، ومثلها دكاكين. واحترق «الرَّبع» المجاور لدار التفاح، وامتدت النيران إلىٰ رَبع الدهيشة [1]. وقد أشار ابن إياس إلي أن هذا الحريق كان من القوة والانتشار بحيث كاد أن يحرق نصف بيوت القاهرة، لولا لطف الله تعالي بالناس [2].

٥- حريق الجسر في «بركة الرطلي»، بالقرب من قنطرة الحاجب[3] في (ربيع الأول ٧٨٨هـ/ أبريل ١٣٨٦م): احترق فيه عدة بيوت [4].

٦- حريق بظاهر المدرسة الصالحية بالقاهرة في (صفر ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م): احترق فيه عدة بيوت[5].

٧- حرائق القاهرة (سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م): احترق فيه عدد من الدور[6].

٨- حريق بولاق (الجمعة ٦ رجب ٨٦٢هـ/ ١٩مايو ١٤٥٨م): استمر الحريق قريبـًا من أسبوع، وأتي علي غالب عُمران بولاق، من ساحل النيل إلي خط البوصة (وفيها مقابر أهل بولاق)، واحترق «رَبْع» الحاج عبيد (البَرْدِدار)[7] بكامله، وامتدت

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٣ ق١ ص٣٢٨)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١١/ ١٦٦)، السخاوي: وجيز الكلام (ص ٢٣٨)، ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٢ ص ١٣٧-١٣٨).

(٢) ابن إياس: المصدر السابق (ج١ ق٢ ص٢٢١).

(٣) **قنطرة الحاجب**: سبق التعريف بها.

(٤) المقريزي: السلوك (ج٣ ق٢ ص٥٤٣)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٣٦٩).

(٥) المقريزي: المصدر السابق (ج٣ ق٢ ص٩١٨)، ابن حجر: إنباء الغمر (٢/ ٣٨).

(٦) ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٤ ص٣٣١)، المقريزي: السلوك (٣/ ٣٥٨)، ابن حجر: إنباء الغمر (٣/ ٣٥٨).

(٧) **البردار**: هو الذي يكون في خدمة مباشري الديوان في الجملة، متحدثا علىٰ أعوانه والمتصرفين فيه. وأصله " فرددار"، وهو مركب من لفظين فارسيين، " فردا" ومعناه: "الستار"، و"دار"، ومعناه "ممسك"، والمراد "ممسك الستار". وكأنه في أول الوضع كان يقف بباب الستارة، ثم نقل إلىٰ الديوان (القلقشندي: صبح الأعشي ٥/ ٤٦٨).

النيران إلي «رَبْع» القاضي زين الدين أبي بكر بن مُزهر وغيره، ووصلت إلي «رَبْع» الصاحب جمال الدين يوسف (ناظر الجيش، والخاص)[1]، فأحرقت أعلاه وأسفله[2].

وقد أعطانا المؤرخون إحصائية لعدد البيوت والرِّباع التي احترقت نتيجة هذا الحريق، فذكروا ثلاثمائة دار[3]، وزيادة علي ثلاثين ربعـًا، كل ربع يشتمل – في أعاليه وأسفله– علي مائة مسكن وأكثر[4]. ويقول ابن تغري بردي – مصوراً حجم البيوت والأماكن التي دمرها هذا الحريق– «وصارت النار إذا وقعت بمكان لا تزال به حتىٰ يذهب جميعه، ويضمحل عن آخره، فعند ذلك فطن كل أحد أن النار تسير من دار إلي دار، إلي أن تصل إلي القاهرة، لعظم ما شاهدوا من هولها... فيئس كل من كان له دار تحت الريح، وتحقق زوالها، وشرع في نقل متاعه وأثاثه، وهو معذور في ذلك، لأننا لم نشاهد في عمرنا مثل هذا الحريق، لما اشتمل عليه من الأمور الغريبة، منها سرعة الإحراق، حتىٰ إن الموضع العظيم من الأماكن الهائلة يذهب في أسرع وقت. ومنها أن المكان العظيم كان يحترق، وبجانبه مكان آخر لم تلحقه شرارة واحدة، وربما احترق الذي كان بالبُعْد عن تلك الدار المحروقة من شرارها، ووقع ذلك بعدة أماكن»[5].

٩- حريق بالقرب من قنطرة الأمير حسين[6]، في (ربيع الأول ٩١٧هـ/ مايو ١٥١١م): احترق فيه نحو من أربعين بيتـًا[7].

١٠- وقد أحرق المماليك الجلبان – أثناء الثورات والاضطرابات العديدة التي أحدثوها – بيوتـًا ورباعًا كثيرة، ففي (عام٨٥٧هـ/ ١٤٥١م) – عندما دبَّ الصراع بين

---

(١) **ناظر الجيش**: من الوظائف الجليلة، رفيعة المقدار. ومهام من يتولاها النظر في أمور الجيش وضبط أموالها، وفي أمور الإقطاعات، وجزئياتها، ويعاونه عدد من الكُتاب (القلقشندي: صبح الأعشىٰ ٤/ ٣٠ – ٣١، ١١/ ٣٢٣ – ٣٢٥). وسيأتي تعريف «ناظر الخاص».

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ١١٩).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (٢/ ٣٤٧).

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ١٢٢).

(٥) ابن تغري بردي: المصدر السابق (١٦/ ١٢٠). وراجع ابن إياس: بدائع الزهور (٢/ ٣٤٧).

(٦) **قنطرة الأمير حسين**: سبق تعريفها.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور (٤/ ٢١٧).

السلطان الملك المنصور «عثمان بن جَقمق»، والأتابك «إينال» - قام مماليك «إينال» بحرق البيوت التي بجوار ميدان «الرملة» تحت قلعة الجبل، واستطاعوا بذلك إيجاد طريق لسور الميدان فهدموه، ودخلوا إليه، وتغلبوا علي مماليك السلطان [1]. وفي (سنة٩٠١هـ/ ١٤٩٥م) أحرقوا الربع المجاور لسوق «الجلاق» بمنطقة الرملة[2]. وفي (سنة٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) أحرقوا «رَبْع» الأمير «يشبك» (الدوادار)، المجاور لمدرسة السلطان حسن، ورَبْع الأمير «خشكلي البيسقي» المجاور لبيته، كما أحرقوا الربوع الملحقة بسبيل المؤمني [3]. وفي جمادي الآخرة من السنة نفسها أحرق طائفة من المماليك الجلبان عدة رباع بمنطقة الأزبكية، إضافة إلي أعمال حرق ونهب أخري[4]. ونتيجة محاولة أحد المماليك حرق بيت أستاذه من أجل نهبه في (صفر ٩١٨هـ/ أبريل ١٥١٢م) احترقت عدة بيوت ورباع مجاورة له بالقاهرة [5].

١١- وفي أثناء المعارك التي وقعت بين المماليك والعثمانيين داخل مدينة القاهرة (عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) احترق عدد من البيوت أثناء تحصن كل من الطرفين في بعض الأماكن، كالبيوت المجاورة لزاوية الشيخ عماد الدين، في منطقة الناصرية، والبيوت التي كانت حول «جامع شيخو» بدرب ابن عزيز [6].

أما بيوت الخاصة – من الأمراء، وكبار رجال الدولة، وكبار التجار – فقد تعرض كثير منها للاحتراق، جزئيًا، أو كليا، في الحرائق الكبرىٰ، وفي فترات الفتن والصراعات السياسية بين كبار الأمراء وأتباعهم من المماليك، بغرض الضغط علي الخصوم وإلحاق الهزيمة بهم، وكذلك في أوقات الاضطرابات وعمليات النهب

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ٤٩)، حوادث الدهور (١/ ٣٤٨ - ٣٤٩).

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ٣٢٢).

(٣) ابن إياس: المصدر السابق (٣/ ٣٧٠ -٣٧١). وسبق تعريف سبيل المؤمني.

(٤) ابن إياس: المصدر نفسه (٣/ ٣٧٠ -٣٧١).

(٥) ابن إياس: نفسه (٤/ ٢٥٨).

(٦) ابن إياس: نفسه (٥/ ١٥٣ - ١٥٦).

والحرق التي قام بها «المماليك الجلبان». والقائمة الآتية توضح ما لحق بهذه البيوت من أضرار:

١٢- « قصر الأمير «سلّار»، بخط بين القصرين، وكان يرتفع عن الأرض (أي طوله) مائة ذراع ، ووصلت النيران إلي بيت كريم الدين (ناظر الخاص) وفيه الحواصل السلطانية(١) وكانت تحوي أموال السلطان، والأقمشة والتحف، وتم إنقاذها، ونقلها إلي مكان آمن بدرب الرصاصي - بيت الأمير سيف الدين «ألماس» (الحاجب)، وبيت الأمير «أيتمش» في قلعة الجبل - دار «بهادر»، بجوار المشهد الحسيني – دار بدر الدين نقيب الأشراف، وما جاورها من بيوت الأشراف، بحارة الديلم - بيت «بيبرس» الأحمدي(٢)، بحارة بهاء الدين قراقوش (٣) - دار «بيبرس» بحارة الصالحية - دار ابن المغربي بحارة زويلة - قصر أمير سلاح ». وهذه البيوت والقصور كلها احترقت في أحداث الفتنة التي وقعت (عام ٧٢١هـ/ ١٣٢١م)(٤).

١٣- بيت القاضي علاء الدين عليّ بن فضل الله (كاتب السر): وصلت إليه النار في حريق منطقة البُندقانيين (سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)(٥).

---

(١) **الحواصل السلطانية**: هي بيوت يتم فيها تخزين المتعلقات الخاصة بالسلطان، مثل الملابس، والمأكولات، والمشروبات، والمفروشات، والأسلحة، وغيرها. وعددها ثمانية (راجع المزيد من محتويات حواصل السلطان (القلقشندي: صبح الأعشىٰ ٣/ ٥٠٠).

(٢) الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد الله الأحمدي المنصوري. من مماليك الملك المنصور قلاوون، وكان جاركسي الجنس؛ تنقل في المناصب إلىٰ أن صار من أعيان الأمراء بمصر. وكان كريمـًا شجاعـًا دينـًا قوي النفس، وكان له ثروة كبيرة، وخلف أملاكـًا كثيرة، وتوفي ثالث عشر المحرم، سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠ / ١٤٣).

(٣) **حارة بهاء الدين**: كانت تسمىٰ «حارة الريحانية»، نسبة إلىٰ طائفة من عسكر الخلفاء الفاطميين نزلوا بها وقت إنشاء القاهرة، فعرفت بهم. وفي عهد الدولة الأيوبية سكنها بهاء الدين قراقوش (أحد وزراء السلطان صلاح الدين الأيوبي)، فعرفت به. وموضعها المنطقة التي تُحد من الشرق بشارع باب الفتوح، ومن الغرب بشارع الخليج المصري (محمد رمزي في تعليقاته علي النجوم الزاهرة ٤/ ٣٨ حاشية رقم ٧).

(٤) المقريزي: الخطط (٣/ ٤٤٣، ٤٤٧)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٥- ٧٠). النويري: نهاية الأرب (٣٣/ ١٠).

(٥) المقريزي: الخطط (٣/ ٦٠).

١٤- بيت الأمير «بركة» عند «حدرة البقر» بالرُّميلة، أمام باب السلسلة (أحد أبواب قلعة الجبل): أحرقه العامة، ونهبوا ما فيه من قماش وآثاث ورخام، (سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م)، عندما اندلع القتال بين هذا الأمير، والأمير «برقوق»، بسبب الصراع علي السلطة النفوذ[١].

١٥- بيت برهان الدين المحلي كبير التجار بشاطئ النيل، داخل صاغة الفاضل: احترق في (شوال ٨٣٦هـ/ مايو١٤٣٣م)، وكان بيتاً جليلاً، أنفق علي بنائه وإعداده نحو خمسين ألف دينار[٢]. وهذه الدار وصفها السخاوي في (الضوء اللامع) بقوله : «أنشأ داراً في غاية الحسن، تشمل علي ثلاث قاعات مصطفة، وعدة قواطين وأروقة، والجميع مفروش بالرخام الملون والزخرفة الهائلة والإتقان، أنفق عليها زيادة علي خمسين ألف دينار، ثم بعد مدة عمل بجوارها مدرسة بديعة، وقد احترقت الدار المذكورة، وسلمت المدرسة فقط»[٣].

١٦- بيت أبي الخير النحاس (وكيل بيت المال). ويقع بين السورين: أحرقه المماليك الجلبان، ونهبوا ما فيه من أثاث، وأقمشة، وذلك في (٢١جمادي الآخرة ٨٥٤هـ/ ٣١ يوليو ١٤٥٠م)[٤].

١٧- بيت « ابن أقبغا آص» في منطقة الروضة، وكان أعظم بيوتها: احترق (ليلة التاسع عشر شهر رجب ٨٩١هـ/ ٢٠ يوليو ١٤٨٦م)[٥].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٢٥٧).

(٢) ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٤ ص٣٣١)، ابن حجر: إنباء الغمر (٣/ ٥٠٠ -٥٠١)، ابن إياس: بدائع الزهور (٢/ ١٤٨)، السخاوي: الضوء اللامع (١/ ١١٢- ١١٣). وسبق التعريف بجلال الدين المحلي التاجر.

(٣) السخاوي: المصدر السابق، الجزء والصفحة نفسها.

(٤) ابن تغري بردي: حوادث الدهور (١/ ٢١٤)، النجوم الزاهرة (١٥/ ٤١٠)، السخاوي: وجيز الكلام (ص٦٤٧).

(٥) السخاوي: المصدر السابق (ص ٩٧٨).

١٨- بيت الأتابكي «أزبك» بمنطقة الأزبكية: أحرقه المماليك الجلبان في (جمادي الآخرة ٩٠٢هـ/ فبراير١٤٩٧م)، وأحرقوا معه عدة ربوع، ونهبوا بيوت السكان، و«الحواصل» و«الطبلخانات» الخاصة بالأتابك[١].

١٩- بيت الأمير آقبردي (الدَّوَادار) عند حدرة البقر: أحرقه المماليك الأجلاب، ونهبوا رخامه وأخشابه وأبوابه، وذلك في (ذي القعدة ٩٠٢هـ/ يولية ١٤٩٦م)[٢]، واستمرت الاضطرابات وأعمال النهب التي يقوم بها هؤلاء الأجلاب إلي شهر ذي الحجة في السنة نفسها، وقاموا بإحراق بيت الأمير «يشبك»(الدوادار) المجاور للقبو، بسوق السلاح، بعد قيامهم بنهب ما في مدرسة السلطان حسن من قناديل، وشبابيك، ورخام، وغيرها[٣].

٢٠- بيت الأمير «خاير بك» (الخِزَندار)[٤]: أحرقه مماليك السلطان «قانصوه الغوري »، ونهبوا ما فيه في (شعبان ٩١٣هـ/ ديسمبر ١٥٠٧م)[٥].

٢١- بيت الأمير «إينال باي» – وهو من الأمراء الرؤوس النُّوب. أحرقه طائفة من المماليك، ونهبوه في (صفر ٩١٥هـ/ مايو ١٥٠٩م)[٦].

(٢) دور العبادة:

تعرضت بعض المساجد والكنائس في القاهرة خلال العصر المملوكي إلي حرائق أدت إلي إلحاق أضرار جزئية، أو تدمير كامل بها.

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ٣٥٠). وسبق التعريف بالأزبكية.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق (٣/ ٣٦٤).

(٣) ابن إياس: المصدر نفسه (٣/ ٣٧١).

(٤) الخِزندار: لفظ مؤلف من كلمتين، «خزانة» العربية، وهو ما يخزن فيه المال. و«دار» الفارسية، ومعناه «ممسك». والمعنى: الموكل بالخزانة السلطانية، والمتولي أمرها، وفي عهدته ما بها من أموال وغلال. وكان الذي يشغل هذه الوظيفة يكون أمير مائة مقدَّم ألف (القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٢١، ٥/ ٤٦٢-٤٦٣، محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية ص٦٨).

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور (٤/ ١٢٣).

(٦) ابن إياس: المصدر السابق (٤/ ١٥٦).

ففي الحرائق الكبرى التي وقعت (سنة٧٢١هـ/ ١٣٢١م) احترق «كثير من الجوامع والمساجد» كما يقول المقريزي في تعداد قائمة الخسائر التي نتجت عن هذه الحرائق[١]. وقال أيضا في هذا السياق: «وكانت النار تُرى في منابر الجوامع، وحيطان المساجد والمدارس»[٢]. وقال ابن تغري بردي: « ثم وقع الحريق في عدة مساجد وجوامع ودُور» [٣].

ومن المساجد التي تعرضت للحريق في هذه الفتنة: «مسجد الظاهر» بالحُسَينية[٤]، حيث قُبض علي رجل قبطي وهو خارج من هذا المسجد، وقد تمكن من وضع فتائل وخِرَق مبللة بالنفط والقطران، بجانب المنبر، ولم يخرج من المسجد إلا بعد تأكده من اشتعالها، وخروج الدُّخَان منها [٥]. وفي رواية النويري – وهو معاصر للحدث – أن ثلاثة من الأقباط « لبسوا العمائم، وتَراءَوْا في زيِّ المسلمين ، ودخلوا المسجد، وقصدوا إحراقه»[٦].

وقد وقع جزء من هذه الحرائق في جهة جامع أحمد بن طولون، وبجواره [٧]. ويؤكد السيوطي علي أن هذا الجامع قد أصابه الحريق بالفعل، وقال في ذلك: «وفي

---

(١) المقريزي: الخطط (٤/ ٤٤٧).

(٢) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٢)، الخطط (٤/ ٤٤٣).

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٧).

(٤) **جامع الظاهر**: أنشأه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ (سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)، في ميدان قراقوش، خارج باب الفتوح من القاهرة (المقريزي: الخطط ٤/ ٩٥). وذكر (محمد رمزي في تعليقاته علي النجوم الزاهرة ٧/ ١٦١) أن هذا الجامع يقع الآن في ميدان الظاهر، بين شارعي الظاهر والعباسية بالقاهرة، وتعطلت منه إقامة الشعائر من أول القرن العاشر الهجري.

(٥) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٣)، الخطط (٤/ ٤٤٤). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٨).

(٦) النويري: نهاية الأرب (٣٣/ ١٤).

(٧) المقريزي: الخطط (٤/ ٤٤٦). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٧٠).

سنة إحدىٰ وعشرين وسبعمائة كان بالقاهرة حريق كبير متتابع خارج عن الوصف، ودام أيامًا في أماكن، وأحرَقَ جامعَ ابن طولون وما حوله بأسره»[1].

وفي الحرائق التي أشعلها أتباع الأمير «إينال العلائي» في البيوت القريبة من ميدان الرملة - أثناء محاولته لخلع الملك المنصور عثمان بن جَقمق في (ربيع الأول ٨٥٧هـ/ مارس١٤٥٣م) - احترق المسجد الموجود في «سبيل المُؤمني»، ووصلت النيران إلي سقفه، وأحرقته عن آخره[2]. كما أن «سبيل المُؤمني» احترق بكامله علىٰ أيدي طائفة من المماليك الجلبان (سنة٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)[3].

وفي (يوم السبت ثامن المحرم٩٢٣هـ/ يناير١٥١٧م) أحرق الجنود العثمانيون «جامع شيخو» بمنطقة الصليبة[4] في اقتحامهم لمدينة القاهرة، واحترق من الجامع سقف إيوانه الكبير، والقبة التي بداخله[5]. كما أنهم هجموا علي «زاوية الشيخ عماد الدين»، في منطقة الناصرية، بالقرب من الميدان الكبير، وأحرقوا البيوت المجاورة للزاوية، ونهبوا ما فيها من فُرُش وقناديل[6].

وأطالت الحرائق عدداً من الكنائس والأديرة في القاهرة، كما حدث (سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م) حينما اعتدي الغوغاء من عامة المسلمين علىٰ عدد من كنائس القاهرة، بالهدم والنهب والحرق[7]. وفي (سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م) احترقت «الكنيسة المعلقة» (في حصن بابليون)، وأصبحت كومًا من التراب والرماد[8]. ولم يذكر المؤرخون سببًا لهذا الحريق. وقد امتدت النيران إلىٰ كنيسة تقع في «زقاق»، يُعرف

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (٢ / ٣٠١).

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ٤٩). وسبق تعريف سبيل المؤمني.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ٣٧٠ - ٣٧١).

(٤) الصليبة: سبق التعريف بها.

(٥) ابن إياس: المصدر السابق (٥/ ١٥٥ - ١٥٦).

(٦) ابن إياس: المصدر نفسه (٥/ ١٥٣ - ١٥٤).

(٧) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢١٦ -٢١٩)، الخطط (٤/ ٤٤٠ -٤٤١).

(٨) ابن الوردي: تاريخ (٢/ ٤٢٠).

بزقاق الكنيسة حينما احترقت منطقة «البندقانيين» وعدة مناطق بالقاهرة (سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)[1].

(٣) المدارس:

وفي أحداث الفتنه الطائفية (عام٧٢١هـ/ ١٣٢١م) احترقت جدران بعض المدارس[2]، واشتعلت النيران في داخل المدرسة «المنصورية»[3]، والمدرسة «الكَهارية »[4].

وقد احترقت مدرسة السلطان الأشرف شعبان، في (رمضان ٧٧٨هـ/ مايو ١٣٧٦م)، وكان قد شرع في تشييدها تحت القلعة، وأتلفت النار كثيرًا من مواد وأدوات البناء، وظلت المدرسة معطلة إلي زمن السلطان «فرج بن برقوق» (٨٠١- ٨١٥هـ/ ١٣٩٩- ١٤١٢م)[5].

كما أن «مدرسة السلطان حسن» – وهي واحدة من المدارس الكبرىٰ في القاهرة [6] – تعرضت للحرق أثناء أحداث الفتنة التي وقعت بين الأمراء الأتراك (سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) بسبب الصراع الذي وقع بينهم علي السلطة في عهد السلطان «محمد بن قايتباي»، حيث هجم عليها مجموعة من المماليك الجلبان، وأحرقوا بابها، وخلعوا رخامها، وشبابيك قبتها، ونهبوا ما بداخلها من فُرُش وقناديل، وأحرقوا بعض البيوت المجاورة لها[7].

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٢ ق٣ ص ٨١٧)، الخطط (٣/ ٥٩ - ٦١).

(٢) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٢)، الخطط (٤/ ٤٤٣).

(٣) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٢). وسبق التعريف بالمدرسة المنصورية.

(٤) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٣)، الخطط (٤/ ٤٤٤). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٧). وسبق التعريف بالمدرسة الكهارية.

(٥) المقريزي: السلوك (٢/ ٢٩٦).

(٦) مدرسة السلطان حسن: سبق التعريف بها.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ٣٧٠ -٣٧١).

وحدث مثل ذلك لمدرسة «أيتَمَش»[1] في أحداث النهب التي قام بها المماليك الجلبان في (ربيع الأول ٨٠٢هـ/ نوفمبر ١٣٣٩م)[2].

وعندما اشتعل الحريق ببيت كبير التجار «برهان الدين المَحلِّي» في (شوال ٨٣٦هـ/ ١٤٣٣م) – ويقع علىٰ شاطئ النيل – كادت النيران تصل إلىٰ المدرسة التي أنشأها بجواره[3].

(٤) منشآت الدولة ومؤسساتها (قلعة الجبل والدور السلطانية):

كانت «قلعة الجبل» في عصر سلاطين المماليك دارَ المُلك، ومركزَ السلطة وعظمتها، بحيث لا تتم سلطة الواحد منهم إلا باستقراره فيها. وقد وصف المقريزي هذه القلعة بأنها بناء عظيم مرتفع، يحيط بها سور ضخم، به عدة أبواب، وبداخل ذلك السور توجد ديار وقصور عديدة، وحمامات وأحواش. كما توجد «طباق» واسعة لسُكنىٰ المماليك السلطانية، وهي اثنتا عشرة طبقة، كل طبقة منها قدرَ حارة، تشتمل علي عدة مساكن، بحيث تتسع كل طبقة لألف مملوك. وبالقلعة – عدا ذلك – دُورٌ لخواص الأمراء ونسائهم، وأولادهم، ومماليكهم ودواوينهم، إضافة إلي دواوين الحكومة، مثل «دار الوزارة» التي اشتملت علىٰ «قاعة الإنشاء»، و«ديوان الجيش»، و«بيت المال»، و«خزانة الخاص». واحتوت القلعة كذلك علي «الاصطبلات» الشريفة التي بها الخيول السلطانية، وساحات الأغنام، والطيور، والحيوانات الغريبة، ويتخلل كلَّ ذلك البساتينُ، والأشجارُ، والمياه الجارية[4].

وكانت «قلعة الجبل» موضع عناية سلاطين المماليك دائما، فأضافوا إليها إضافات كثيرة، وشيدوا بها عمائر جديدة، من قصور، ومساجد، وأبراج، وأحواش، وقاعات، وغيرها، حتىٰ أصبحت مضربَ الأمثال بقصورها الفخمة، وسقوفها

---

(١) مدرسة أيتمش: سبق التعريف بها.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٢/ ١٨٩).

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر (٢/ ٢٨٩).

(٤) المقريزي: الخطط (٣/ ٣٥٧- ٣٥٨، ٤٠٠).

الذهبية، وطرقها المغطاة بالرخام الثمين المجلوب من مختلف البلاد، وبيوتها المزخرفة بالزجاج القُبرسي الملون [1].

وأما البيوت السلطانية في داخل القلعة – ويُطلق عليها أيضًا اسم «حواصل السلطان» – فهي عديدة، ويشرف علي كل منها مباشر من أمراء «المِئين»، له مساعدون وغلمان عديدون. وعدد هذه الحواصل ثمانية، وهي: الشرَاب خاناه، والطَّشت خاناه، والفَراش خاناه، والرِّكاب خاناه، والسلاح خاناه (أو الزَّرْدَخاناه)، والطَّبل خاناه، والحوائج خاناه، والمطبخ [2]. وفي داخل قلعة الجبل خُصصت بيوت أو قاعات لحريم السلطان، تحيط بها البساتين والأشجار، عدا قاعات أخري لجواري السلطان، ولزوجات الأمراء [3].

وقد تعرضت منشآت قلعة الجبل ومرافقها للعديد من الحرائق الكبرىٰ والصغرىٰ، وكان لها آثارها الوخيمة، وخلَّفت أضراراً جسيمة، وأتلفت أموالاً جزيلة، وكان لبعضها من القوة وكثرة الخسائر بحيث تركت آلامًا عميقة لدي بعض السلاطين. وفيما يأتي عرض للخسائر التي خلفتها الحرائق التي اندلعت بمرافق القلعة ومبانيها، حسب التسلسل التاريخي لها:

[أ] القاعة الصالحية: أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكانت سكنًا للملوك، إلي أن احترقت في (السادس من ذي الحجة سنة ٦٨٤هـ/ فبراير١٢٨٦م)، واحترق معها الخزانة السلطانية [4].

---

(١) المقريزي: المصدر السابق (٣/ ٣٦٧)، سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (ص٥٨ – ٥٩).

(٢) ذكر القلقشندي في (صبح الأعشىٰ ٤/ ٩ -١٠، ١١/ ١٥٩، ٢٦١): أن حواصل السلطان يُعبَّر عنها بالبيوت، وذلك أنهم يضيفون كل واحد منها إلىٰ لفظ (خاناه) كالطشت خاناه، والشراب خاناه ونحوهما. وخاناه: لفظ فارسي، معناه البيت، والمعنىٰ "بيت كذا"، إلا أنهم يؤخرون المضاف علىٰ المضاف إليه، علىٰ عادة العجم في ذلك، وهي ثمانية بيوت».

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (ص٦٥ -٦٦).

(٤) المقريزي: الخطط (٣/ ٣٧١).

[ب] خزائن الخاص: احترق بعضها في (يوم الجمعة ١٤ صفر٦٩١هـ/ ٤ فبراير ١٢٩٢م)، وكانت تحتوي علي كثير من الذخائر، والنفائس، وعدد كبير من الكتب النادرة[١]، في الفقه، والحديث، والتاريخ، وعامة العلوم، وقد «انتهبها الغلمان، وبيعت أوراقًا مُحرَّقةً، وظفر الناس منها بنفائس غريبة؛ ما بين ملاحم وغيرها، وأخذوها بأبخس الأثمان»[٢].

[ج] البرج المنصوري وطباق الجَمدَارية[٣]: أحرقت النار أربع طباق (١٩ شعبان، سنة ٧١٥هـ/ ١٧ نوفمبر ١٣١٥م)[٤]، وهي التي رسم السلطان بهدمها، وإضافتها إلي طباق البرج الجديد[٥].

[د] قيسارية بقلعة الجبل، بجوار باب القرافة، كانت مسكنا لجماعة من المماليك السلطانية، احترقت يوم الأحد، مستهل جمادىٰ الآخرة سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م. وتم هدم ما حول هذا المكان من الدروب[٦].

[هـ] بيت الأمير «أُلمَاس»[٧] (الحاجب): في داخل القلعة، اشتعل فيه الحريق، وسرت النار – بفعل الرياح الشديدة – إلي بيت الأمير «أيتَمُش»[١]، «فانزعج أهل

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (١٣/ ٣٨٥)، النويري: نهاية الأرب (٣١/ ١٤٢)، ابن شاكر الكتبي: عقد الجمان (١/ ٢٣٤)، المقريزي: السلوك (ج١ ق٣ ص٧٧٧)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٨/ ٣٣)، السيوطي: حسن المحاضرة (٢/ ٢٩٧).

(٢) المقريزي: الخطط (٣/ ٣٧٠).

(٣) الجَمَدَارية: سبق التعريف بهذا المصطلح.

(٤) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص١٥٧).

(٥) الصفدي (العباسي): نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك (٢٢٦ - ٢٢٧).

(٦) النويري: نهاية الأرب (٣٣/ ١٨).

(٧) الأمير سيف الدين أُلماس (بضم الهمزة) بن عبد الله الناصري. من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، وخواصه. رقاه في المناصب حتىٰ ولاه حاجب الحُجَّاب، وصار في محل نائب السلطنة لشغور منصب النيابة في أيامه، وعظمت منزلته. وقد سعي بالاتفاق مع (بكتمر الساقي) في قتل الناصر، فقبض عليه، وسجن، وتوفي في محبسه خنقًا ليلة ثاني عشر صفر، سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م، ودفن بجامعه الذي أنشأه خارج

القلعة وأهل القاهرة، وحسبوا أن القلعة جميعًا احترقت»[٢]. وكان هذا الحريق جزء من سلسلة الحرائق الكبرىٰ التي اشتعلت في كثير من أحياء القاهرة، أثناء الفتنة الطائفية (سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م)[٣].

[و] دار نائب السلطنة بالقلعة: احترق منها مكان يعرف بالمنظرة الحسامية، بأعلىٰ الدار، وسرعان ما أطفئت بمعاونة السقائين. وذلك في (يوم الاثنين التاسع من جمادىٰ الآخرة سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م)[٤].

[ز] الدُّور السلطانية: وقع فيها «حريق عظيم» في (٢٣ رجب ٧٦٩هـ/ ١٣ مارس ١٣٦٨م)[٥]. ولم يُذكر حجم الخسائر الناتجة عنه. كما احترق عدة أماكن من الدور السلطانية، ومنها بعض بيوت النساء في (ليلة الأحد ٢٩ جمادىٰ الآخرة ٧٧٤هـ / ٢٥ ديسمبر١٣٧٢م)، واستمرت النار مشتعلة عدة أيام، «وضاق صدر السلطان الأشرف شعبان بن حسين بسببه، وتنكد غاية النكد» علي حد وصف المؤرخين لحالته النفسية [٦]. وتكررت الحرائق في الدور السلطانية في (شهر ربيع الأول ٨١٦هـ/ مايو١٤١٣م)، واحترق فيه رجلٌ، ومات من جراء الحريق. ولعل ما جاء في وصف هذا الحريق بأنه

باب زويلة عند حدرة البقر، ويعرف بجامع ألماس (ابن حبيب: تذكرة النبيه ٢/ ٢٤٥، ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٣/ ٨٩).

(١) الأمير سيف الدين أيتمش بن عبد الله الناصري، أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون وخاصكيته. تنقل في عدة وظائف، ثم ولىٰ الوزارة، وحسنت سيرته، وأبطل عدة مظالم، ثم نقل إلىٰ نيابة دمشق، فباشرها إلىٰ أن عزل عنها. وتوفيفي شهر رمضان سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م؛ وكان أميراً جليلاً، كثير الخير (ابن تغري بردي: المنهل الصافي ١/ ٢٢٨ - ٢٢٩).

(٢) المقريزي: الخطط (٤/ ٤٤٧).

(٣) المقريزي: المصدر السابق (٣/ ٤٤٢ وما بعدها). النويري: نهاية الأرب (٣٣/ ١٨).

(٤) النويري: المصدر السابق (٣٣/ ١٨).

(٥) المقريزي: السلوك (ج٣ ق١ ص١٥٨)، السخاوي: وجيز الكلام (ص١٦٣).

(٦) المقريزي: المصدر السابق (ج٣ ق١ ص٢٠٥)، ابن شاهين: نيل الأمل (٢/ ٤٧)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص١١٢).

«مهول»، وأنه «عَظُمَ أمرُه»، واستمراره مدة أسبوع [1] يجعلنا نرجح بأنه ترك خسائر فادحة.

[ح] الاصطبل السلطاني: أُحرق سقفه في (شهر رجب سنة ٨٧١هـ/ فبراير ١٤٦٧م). وقد اشتعلت فيه النار مدة يسيرة، وتم إطفاؤها سريعًا[2]. واشتعلت فيه النار مرة أخري في (ربيع الآخر ٨٨١هـ/ يوليو ١٤٧٦م)، واحترقت ستة من خيول السلطان الخاص، وامتد الحريق إلي «باب السلسلة» أحد أبواب القلعة، وتم هدم جانب كبير منه [3].

[ط] القاعات السبع: وهي التي أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وخصصها لسراريه، وتشرف علىٰ الميدان وباب القرافة أحد أبواب القلعة[4]. احترق منها عدة أماكن، ووصل الحريق إلي مكان «الديوان» (لعله ديوان الجيش)، وتلف بسببه «شئ جزيل»، وذلك (ليلة ١٢ رجب سنة ٨٩١هـ/ يوليو ١٤٨٦م)[5].

[ي] حواصل السلطان المجاورة لقاعة البحرة: كانت تحتوي علي خيام كثيرة، احترق غالبها في (جمادىٰ الآخرة سنة ٨٩٩هـ/ مارس ١٤٩٣م)، ولم يسلم من الخيام سوي خيمة المولد النبوي، وقُوِّم ما احترق منها بنحو مائتىٰ ألف دينار. وقد تأثر السلطان لهذا الحريق، وشق عليه احتراق الخيام، وقدم له كثير من الأمراء والمباشرين عدداً كبيراً من الخيام، عوضـًا عما احترق منها[6].

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٤ ق١ ص٢٥٩)، ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٣ ص٢٥٠)، ابن حجر: إنباء الغمر (٣ / ٨).

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور (٢/ ٤٤٧).

(٣) السخاوي: وجيز الكلام (ص٨٧١)، ابن إياس: المصدر السابق (٣/ ١٢٠).

(٤) المقريزي: الخطط ٣/ ٤٠٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ١٨١).

(٥) السخاوي: وجيز الكلام (ص٩٧٨).

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ٣٠٠).

[ك] الزَّردخاناه [1]: وهي خزائن السلاح (السلاح خاناه). أحرق المماليك الجلبان بابها في ثورة قاموا بها بالقلعة لقتل مُقدَّم المماليك في (جمادي الأولىٰ سنة ٨٨٧هـ/ يونيو ١٤٨٢م) [2]. وتعرضت لحريق آخر في (ربيع الآخر سنة ٩١٩هـ/ يونيو١٥١٣م)، فاحترق سقفها، وقتل ثلاثة من الصناع الذين كانوا يعملون في إعداد البارود لاستخدامه في المكاحل (المدافع). وقد تولد عن هذا الحريق دخان كثيف امتلأت به جنَبات القلعة، ووصل إلي «الأشرفية» التي يجلس فيها السلطان[3].

ومن المعلومات الواردة عن احتراق بعض ممتلكات الدولة أن «الطبلخانات» الخاصة بالأتابك «أزبك» - وكذلك الحواصل التي كانت في بيته، وتحتوي علي خيام ونُشَّاب - قد تعرضت للحريق الذي قام به مجموعة من المماليك الجلبان بحي الأزبكية، في (جمادىٰ الآخرة سنة ٩٠٢هـ/ فبراير١٤٩٧م)[4].

(٥) أبواب القاهرة وأسوارها:

تعرضت بعض أبواب القاهرة[5] في العصر المملوكي للحريق في فترات الاضطرابات السياسية التي كانت تقع عادة بين الأمراء، من أجل الصراع علىٰ السلطة وفرض النفوذ. ففي (سنة٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م) قام «المماليك البحرية» بحرق «باب

---

(١) الزَّردخاناه: سبق تعريفه.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ١٩٥).

(٣) ابن إياس: المصدر السابق (٤/ ٣١٤).

(٤) ابن إياس: المصدر نفسه (٣/ ٣٥٠).

(٥) كان للقاهرة ثمانية أبواب: بابان متلاصقان من جهتها القبلية، يقال لهما: باب زويلة. ومن جهتها البحرية، بابان متباعدان، باب الفتوح (بجوار جامع الحاكم بأمر الله، آخر شارع المعز)، وباب النصر. ومن جهتها الشرقية ثلاثة أبواب متفرقة: أحدها يعرف بباب البرقية (خارج حارة البرقية التي اختطها جماعة من أهل برقة، وتعرف الآن بالدرَّاسة)، والثاني: الباب المحروق (وهما يطلان علىٰ تلال المقطم)، والثالث: الباب الجديد. ومن جهتها الغربية (المطلة علىٰ الخليج الكبير) ثلاثة أبواب: باب القنطرة (أو الجسر)، وباب الفرج، وباب سعادة. وباب آخر يعرف بباب الخوخة. ولم تكن هذه الأبواب علي ما عليه الآن، في أماكنها عندما وضعها جوهر (المقريزي: الخطط ٢/ ٢٣٩، عباس الطرابيلي: أحياء القاهرة المحروسة ص٢٩ ، ٤٠).

القرَّاطين»– أحد أبواب القاهرة، وعرف بعد ذلك بالباب المحروق – حتىٰ سقط من قوة الحريق، وذلك عندما فرُّوا ليلاً إلي الشام بعد مقتل أستاذهم الأمير «أقطاي»، علي يد عز الدين أيبك، وكان عددهم سبعمائة فارس[1].

وقام المماليك الأشرفية أثناء ثورتهم (عام٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م) بحرق «باب سعادة» – ويقع في الجهة الغربية من القاهرة – من أجل الدخول إلي القاهرة، وإخراج بقية المماليك معهم، وأخذوا الكثير من السلاح والخيل من الاصطبلات، وتجمعوا تحت القلعة، لمطالبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بقتل «حسام الدين لاجين» االذي قتل أستاذهم «الأشرف خليل»[2].

وقد تضررت مواضع من أسوار القاهرة نتيجة اشتعال بعض الحرائق بجوارها، أو علي مقربة منها، ثم امتدت إليها. ففي حريق (سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٨٠م) الذي وقع خارج باب زويلة «امتدت النار إلي سور القاهرة» كما يقول المقريزي[3]. وكان هذا السور سداً منيعًا أمام هذا الحريق، فقد حجز النيران من الزحف إلي مناطق أخري بعد أن دمرت العديد من الأسواق الكبري، « ولولا سور القاهرة – كما يقول ابن إياس– لاحترق نصف المدينة في تلك الليلة»[4].

ثانيا: أثر الحرائق على الأوضاع الاقتصادية:

تضررت الأوضاع الاقتصادية والحياة المعيشية لسكان القاهرة وضواحيها تضرراً كبيرًا، نتيجة الحرائق التي اندلعت في الأسواق، والمنشآت التجارية والصناعية، والمحاصيل والمنتجات الزراعية. ومن المؤكد أن حجم الخسائر الاقتصادية التي تنتج عن الحرائق تختلف باختلاف حجم الحريق، وما احترق فيه، فإذا كان الحريق كبيرا تكون الخسائر كبيرة أيضًا، مما يؤدي إلي شح البضائع،

(١) المقريزي: السلوك (ج١ ق٢ ص٣٩٠-٣٩١)، الخطط (٢/ ٢٤٥)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق١ ص٢٩١ – ٢٩٢). وسبق التعريف بباب القرَّاطين.

(٢) المقريزي: السلوك (ج١ ق٣ ص٨٠٥).

(٣) المقريزي: المصدر السابق (ج٣ ق١ ص٣٢٨)، ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٢ ص ١٣٧ – ١٣٨).

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٢٢١).

وارتفاع الأسعار، وضياع للجهد والمال، ويؤدي كذلك إلىٰ زيادة معدل الفقر والبطالة لدي قطاعات من السكان، ممن احترقت ممتلكاتهم، وبيوتهم.

ومن المؤكد أن عمليات إزالة مخلفات الحرائق، وإعادة إعمار المنشآت والمناطق المحترقة، ومحاولة الدولة توفير التعويضات للمتضررين من الحرائق كانت تحتاج إلىٰ توفير الأموال اللازمة، وزيادة معدل الإنفاق.

وفيما يأتي توضيح للأضرار التي خلَّفتها حرائق القاهرة علىٰ القطاع التجاري، والصناعي، والزراعي، بحسب ما تجمع لدينا من معلومات.

١- القطاع التجاري والصناعي:

تعرضت الأسواق والحوانيت والمراكز التجارية العامة – كالفنادق، والقيساريات [١]، ومخازن السلع - لحرائق كبرىٰ، بما تحتويه من أنواع الحِرَف، والبضائع، والمحاصيل الزراعية، والسلع المتنوعة، وكانت بعض الحرائق من القوة والامتداد بحيث دمرت أسواقًا ومراكز تجارية كاملة، حتىٰ أصبحت أثرًا بعد عين.

ففي حريق (سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م) احترق جزء من سوق الشوايين[٢]، وقيسارية الفقراء [٣]، وامتدت النيران إلىٰ «فندق طُرُنْطاي»[٤]، وهو « دار الوكالة، ويُعرف بفندق الخَزِّ»[٥]، وكان هذا الفندق – كما يصفه المقريزي – ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام، فعمَّت النار كلَّ ما فيه، ولم تسلم أعمدة الرخام، وكانت ستة عشر عمودًا، طول كل منها ستة أذرع، ودوره نحو ذراعين، فصارت كلها جيراً، وتلف فيه لتاجر

---

(١) القيساريات: منشآت تجارية متخصصة في شكل مبان كبيرة داخل الأسواق، وتضم عدة حوانيت تختلف عن الحوانيت المقامة علىٰ جوانب السوق، لأن القيساريات تعد وحدات خاصة لها أبوبها ومداخلها، ولها حارس، وتضم القيسارية نحو (٣٠) إلىٰ (٤٠) دكانا أو حانوتا (عبد العال الشامي: جغرافية المدن عند العرب، ص١٥٧ –١٥٨).

(٢) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٠)، الخطط (٤/ ٤٤٧).

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٧٠).

(٤) فندق طُرُنْطاي: سبق تعريفه.

(٥) النويري: نهاية الأرب (٣٣/ ١٠).

واحد ما قيمته تسعون ألف درهم [1]. والعجيب أن هذا التاجر نقل بضاعته من الزيت إلىٰ داخل الفندق في اليوم الذي وقع فيه الحريق بعد العشاء الآخرة، فلما كان نصف الليل، وقع الحريق بهذا الفندق، فاحترق جميعه، وأصبح التاجر يستعطي الناس في موضع هذا الفندق [2].

وفي حريق (الجمعة شهر صفر سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) اشتعلت النيران في أسواق «البُندقانيين»، وهو من الأسواق الكبرىٰ، ومركز تجاري وصناعي واسع، يضم كثيرًا من الدكاكين لبيع «المأكولات من الشواء، والطعام المطبوخ، وأنواع الأجبان، والألبان، والبوادر، والخبز والفواكه، كما يشتمل علىٰ العديد من دكاكين صناع قِسِيِّ البندق، والرسَّامين، وبياعي الفقاع» [3]. وقد احترقت في هذا السوق دكاكين البندقانيين، ودكاكين الرسامين، وحوانيت الفقاعيين، والفندق المجاور لها، وامتدت النار إلىٰ قيسارية طَشْتَمُر، كما وصلت النار إلىٰ بئر الدلاء (وكانت تعرف قديمًا ببئر زويلة)، وأحرقت ما جاورته من دكاكين[4]، و« كان المصاب بهذا الحريق عظيمًا، تلف فيه للناس من المال، والثياب، والمصاغ، وغيره بالحريق والنهب ما لا يعلم قدره إلىٰ الله، وهدمت عدة أماكن جليلة، ما بين رباع وحوانيت» [5].

واحترقت دار التفاح (ليلة الأحد ٢٥ ذي الحجة ٧٧٩هـ/ ٢٤ أبريل ١٣٧٨م) - أو المحرم ٧٨٠هـ - وكانت من المراكز التجارية الكبرىٰ في القاهرة، وتقع تجاه باب زويلة [6]، وإليها تَردُ أنواع الفواكه التي تُزرع في ضواحي القاهرة، كالتفاح، والكمثرىٰ، والسفرجل، وغيرها، ومنها تنقل إلىٰ سائر أسواق القاهرة ومصر، ويوجد أمامها عدد

---

(١)\المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٦)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٧٠).

(٢) المقريزي: الخطط (٣/ ١٧٢).

(٣) المقريزي: المصدر السابق (٢/ ٢٦٣).

(٤) المقريزي: السلوك (ج٢ ق٣ ص٨١٧)، الخطط (٣/ ٦٠).

(٥) المقريزي: الخطط (٣/ ٦٠).

(٦) السخاوي: وجيز الكلام (ص٢٣٨)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٢٢١).

كبير من الحوانيت تباع فيها الفواكه التي يتأنق الباعة في تنضيدها وتزيينها بالأزهار والرياحين [1].

واشتعلت النيران في عدد من الدكاكين المجاورة من دار التفاح، فاحترقت دكاكين «الفاكهيين» و«البقليين» و«البراذعيين»، و«الموازيين» [2]، ووصل عدد الدكاكين التي أحرقت إلىٰ خمسمائة دكان [3].

وفي حريق بولاق (سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م) – الذي عجز الأمراء والحكام عن إخماده، وأتىٰ علىٰ أغلب ما في هذا الحي من أملاك – احترقت مخازن البضائع الملحقة برَبع جمال الدين (ناظر الجيش)، «وذهب فيه من بضائع الناس المخزونة ما لا ينحصر كثرة» (كما يقول ابن تغري بردي) [4]. كما احترق عدد كبير من الحوانيت، والمخازن، وأفران الخبز التي توجد في أسفل الرباع [5]، ونتيجة لذلك فقد لحق بالتجار والصناع الكثير من الخسائر المادية، ووصل بعضهم إلىٰ حالة الفقر، كما أشار ابن إياس [6].

ومن الخسائر التي ألحقتها الحرائق بالجانب الاقتصادي في القطاعين التجاري والصناعي: احتراق مركب (عام ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م)، كانت راسية علىٰ ساحل النيل، لتسير غلىٰ جهة الصعيد، وكانت محملة بأنواع من البضائع، كالثياب، والسيرج [7].

كما احترقت مركب أخري في (المحرم سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م) كانت محملة بـ «الكتان»، وكانت راسيةً في النيل عند رصيف بولاق، وامتدت نيران هذا الحريق إلي

---

(١) المقريزي: الخطط (٣/ ١٧٠).

(٢) المقريزي: السلوك (ج٣ ق١ص٣٢٨)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٢٢١). وقد سبق التعريف بهذه الأسواق.

(٣) ابن إياس: المصدر السابق، والجزء، والصفحة.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ١٢٠).

(٥) ابن تغري بردي: المصدر السابق (١٦/ ١٢٢)، ابن إياس: بدائع الزهور (٢/ ٣٤٧).

(٦) ابن إياس: المصدر السابق، والجزء والصفحة.

(٧) المقريزي: السلوك (ج٤ ق٢ ص٨٩٢)، ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان (٣/ ٢٦٠)، ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٤ ص٣٣١).

معصرة قصب قريبة من المركب، فاحترقت عن آخرها، ونهب الناس ما تبقي فيها من قصب، وسكر،وعسل(١).

وفي (ربيع الأول ٩١٧هـ/ مايو ١٥١١م) احترق عدد من الحوانيت عند قنطرة الأمير حسين، وأتلفت النار الكثير من الأموال، والبضائع، والأقمشة(٢).

وقد أمدتنا المصادر ببعض الإحصائيات التي تفيد وقوع خسائر مالية فادحة نتجت عن احتراق بعض بيوت الأمراء وكبار التجار، كبيت برهان الدين المحلي كبير التجار الذي احترق في (شوال ٨٣٦هـ/ مايو ١٤٣٣م) وكان من أفخم البيوت التي تقع علي شاطئ النيل، وأنفق علي إعداده نحو خمسين ألف مثقال (دينار) من الذهب(٣).

وكان لانتشار صناعة البارود بالقاهرة في أواخر العصر المملوكي – وخطورة تلك المادة – دور في احتراق أماكن صنعها، وموت عدد من صناع البارود في تلك الحرائق. ومن تلك الحوادث احتراق "الزردخاناه" – وهي من المنشآت العسكرية – بالقلعة (في صفر ٩١٩هـ/ أبريل ١٥١٣م)، أثناء عمل بعض الصناع في البارود، حيث أصابت النيران سقف «الزردخاناه»، وانتشرت في أرجائها، ثم ارتفع الدخان بشكل كثيف في الأجواء المحيطة بها، واحترق ثلاثة من صناع البارود وماتوا، نتيجة ما أصابهم من الحروق(٤).

وفي (صفر من العام التالي٩٢٠هـ/ مارس ١٥١٤م) احترق نحو عشرين من صناع البارود وهم يعملون علي متن مركب من الأسطول، نتيجة اشتعال النيران في

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور (٤/ ١١٤).

(٢) ابن إياس: المصدر السابق (٤/ ٢١٧).

(٣) ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٤ ص٣٣١). ابن حجر: إنباء الغمر (٣/ ٥٠٠-٥٠١)، ابن إياس: بدائع الزهور (٢/ ١٤٨).

(٤) ابن إياس: المصدر السابق (٤/ ٣١٤).

البارود، وتعلقت النيران بالمركب فأحرقته عن آخره، وكانت تكلفته خمسمائة دينار[1].

وكانت «الزَّردخاناه» - وهي خزائن السلاح - قد تعرضت لحريق في (جمادىٰ الأولي ٨٨٧هـ/ يونيو ١٤٨٢م) أثناءَ الاضطرابات التي قام بها جماعة من المماليك الجلبان لقتل مُقدَّمهم[2].

ومن المؤكد أن وفاة هؤلاء الصناع المتخصصين في هذه الحرائق، وتعرُّض منشآت التصنيع للاحتراق يمثل خسارة كبيرة، بشرية، ومادية، في مجال الصناعات العسكرية الخاصة بالدولة.

٣- القطاع الزراعي:

ومن المؤكَّد أن بعض الحرائق التي اندلعت في القاهرة المملوكية قد أضرت بالقطاع الزراعي، نتيجة احتراق وتلف المحاصيل الزراعية، والغلال، والأشجار، واندلاع النيران في الأجران والشون (وهي مخازن الغلال) والأقصاب؛ ففي (سنة ٧٤٥هـ/ مايو١٣٤٤م) اشتعلت عدة حرائق في القاهرة بسبب التقلبات المناخية، وأحرقت رءوس الأشجار، ومزارع الباذنجان، والكتان[3]. وفي (جمادىٰ الأولي سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م) احترقت شونة قصب للأمير جركس الخليلي[4]، وقُوِّمت بألف دينار[5]. كما احترقت كميات كبيرة من الغلال وقت الدّريس، ناحية شيبين القصر

(١) ابن إياس: نفسه (٤/ ٣٦٦).

(٢) ابن إياس: نفسه (٣/ ١٩٥). وسبق تعريف مصطلح «المقدم».

(٣) المقريزي: السلوك (ج٢ ق٣ ص٦٧٣).

(٤) الأمير سيف الدين جركس بن عبد الله الخليلي، اليلبغاوي، عظيم دولة الملك الظاهر برقوق (٧٨٤ - ٧٩٠هـ). تولي وظيفة «أمير آخور الكبير» (أمير الاصطبلات السلطانية)، وصار مشيرًا للدولة. وكان أميراً مهابـًا، عاقلاً، خبيراً، سيوسـًا. له بالقاهرة خان يعرف بخان الخليلي، ومآثر بمكة وغيرها. توفي قتيلاً في شهر ربيع الأول سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ٣٨٣).

(٥) المقريزي: السلوك (ج٣ ق٢ ص٤٩٢)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٢٥٣).

بالقاهرة (عام ٨٣٦هـ/ ١٤٣٣م)[١]. واحترق العديد من الشُّوَن في حريق بولاق الكبير الذي وقع في (جمادىٰ الآخرة سنة ٨٦٢هـ/ أبريل ١٤٥٨م)[٢].

وكان الأمراء المماليك يكثرون من تخزين الغلال في مخازن خاصة، سواء في بيوتهم، أو في خارجها، لاسيما في أوقات (الدريس). وقد كثرت الحرائق في هذه المخازن بعدة أماكن بالقاهرة، في أواخر (سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م)، «وحصل للناس الضرر الشامل" (كما يقول ابن إياس)[٣]. وتكررت مثل هذه الحرائق في (ذي القعدة سنة ٩١١هـ/ مارس ١٥٠٦م)، «وكانت المماليك قد أكثرت من خزن الدريس في هذه السنة»[٤]. وفي (الشهر نفسه، من السنة التالية ٩١٢هـ/ مارس ١٥٠٧م) احترق مخزن الغلال الذي يملكه الأمير «طراباىٰ» (رأس نَوْبة النُّوَب) بدرب الخازن[٥].

ثالثا: أثر الحرائق علي الأوضاع الاجتماعية لسكان القاهرة:

كان للحرائق التي شهدتها القاهرة في الفترة المملوكية شديد الأثر علي نفسية السكان وحياتهم الاجتماعية. وقد سجل المؤرخون – بعبارات موجزة – حالات الذعر والخوف التي كانت تجتاح الناس عند اشتعال الحرائق، وانتشارها في مساحات كبيرة، وتدميرها للبيوت والمنشآت، وإتلافها للأموال والممتلكات. كما رصدوا أيضا الجهود الكبيرة التي كان السكان يبذلونها في عمليات إطفاء الحرائق، والمعاناة الشديدة التي يعيشونها أثناء الحرائق وبعدها، وربما تمتد هذه المعاناة عدة شهور إذا تركت الحرائق آثاراً تدميرية كبيرة في الممتلكات والمنشآت.

---

(١) المقريزي: المصدر السابق (ج٤ ق٢ ص٨٩٢)،

(١) المقريزي: المصدر نفسه (ج٤ ق٢ ص٨٩٢)، ابن حجر: إنباء الغمر (٣/ ٥٠١)، ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان (٣/ ٢٦٠)،

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور (٢/ ٣٤٧).

(٣) ابن إياس: المصدر السابق (٤/ ٣٠).

(٤) ابن إياس: المصدر نفسه (٤/ ٩٢).

(٥) ابن إياس: نفسه (٤/ ١٠٧ – ١٠٨). وسبق تعريف مصطلح «رأس نوبة النوب».

ومن المنطقي عند نشوب الحريق في مكان ما – وخصوصـًا المساكن – أن يهجره أصحابه حتىٰ يتم إعادة بنائه وإعماره.

والأمثلة التي نقلها المؤرخون عن الآثار النفسية والأضرار الاجتماعية التي لحقت بسكان القاهرة وضواحيها من جراء الحرائق كثيرةً ومتنوعة، ومن أهمها: أثناء انتشار حرائق القاهرة (سنة٧٢١هـ/ ١٣٢١م) – ونتيجة خروجها عن السيطرة وعدم القدرة علي إطفائها، لسرعة سريانها، ووقوعها في العديد من الأمكنة والأبنية، إضافة إلي هبوب ريح عاصفة، ألقت النخيل، وغرقت المراكب، ونشرت النار – دب الذعر والهلع في قلوب السكان، حتىٰ «ما شكُّوا في أن القيامة قد قامت»، وخرجوا من البيوت إلي المساجد والزوايا، وتعلقوا بالمآذن، وضجوا بالدعاء والتضرع إلي الله تعالي، وجأروا، وكثر صراخ وبكاؤهم، وأصبحوا في أسوأ حال [١]، وعبر ابن أيبك عن هذه الحالة بقوله: «وكل أحدٍ خائفٌ، ووَجِلٌ علىٰ نفسه، وملكه، وماله» [٢].

ويقول النويري – في تصوير حالة الذعر التي انتابت الناس أثناء اشتعال هذه الحرائق الكبرىٰ، وكان معاصرا لهذا الحدث- : « وصار الناس يسهرون طول الليل بالنَّوْبة، خصوصـًا علىٰ دُور الأمراء، فإن مماليكهم وغلمانهم كانوا يبيتون علىٰ أسطحة دُورهم، ويضربون الطبول، ويصرخ بعضهم لبعض، وامتنع كثير من الناس من حضور الجمعة، لملازمتهم أسطح بيوتهم»[٣].

وعندما وقع الحريق الأعظم بدار التفاح، ظاهر باب زويلة (سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م) – ودمر بيوتـًا ورباعـًا كثيرةً، وامتد إلي سور القاهرة – انتاب الناس قلق شديد، «وباتوا علي وَجَل منه» (كما عبر ابن إياس) [٤]، و«أخذوا يتحدثون بأن هذا

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢١)، الخطط (٤/ ٤٤٣). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٥).

(٢) ابن أيبك الدوادار: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر- وهو الجزء التاسع من« كنز الدرر وجامع الغرر» (ص ٣٠٦).

(٣) النويري: نهاية الأرب (٣٣/ ١٠).

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٢٢١).

مبدأ خراب القاهرة، وكثر ذلك علي الألسنة»[1]، كما أنهم بذلوا جهدا كبيراً في إزالة آثار هذا الحريق علي مدىٰ ثلاثة أشهر [2]، مما يظهر المعاناة النفسية التي مروا بها في تلك الفترة.

ونقل المؤرخون صوراً للمعاناة التي لحقت بسكان «حي البُندقانيين» حين اشتعلت فيه الحرائق (سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، وأحرقت النيران أسواقًا وبيوتًا كثيرةً، وأعيي الناسَ خمودُها، وعجز السقاؤون عن إطفائها، واستمرت مشتعلةً عدة أيام، وأسرع الناس في هذه المنطقة ينقلون أمتعهم من البيوت، خوفًا من الحريق. وقد وصف المقريزي المعاناة الشديدة التي عاشها سكان هذا الحي أثناء اشتعال الحريق، والخسائر التي لحقت ببيوتهم وأموالهم، فيقول: «وكان أهل البيت – بينما هم في نقل ثيابهم – إذا بالنار قد أحاطت بهم، فيتركون ما في الدار، وينجون بأنفسهم، ويتركون أموالهم، والأمر يعظم، والهدم واقع في الدور المجاورة لأماكن الحريق، خشية من تعلق النار بها ... وكان المصاب بهذا الحريق عظيمًا، تلف فيه للناس من المال، والثياب، والمصاغ وغيره بالحريق والنهب ما لا يعلم قدره إلا الله. هذا، مع ما كان فيه الأمراء من منع النهابة وكفهم عن أموال الناس، إلا أن الأمر كان قد تجاوز الحد، وعطب بالنار جماعة كثيرة» [3] . وكان الناس من شدة هول هذا الحريق يتناوبون السهر، وأعدُّوا الأوعية الممتلئة بالمياه، ليكونوا علي أُهبة الاستعداد لمواجهة الحرائق المفاجئة، «ومع ذلك – كما يقول المقريزي- فلا يدري أهل بيت إلا والنار قد وقعت في بيتهم، فيتداركون طفيها، لئلا تشتعل ويصعب أمرها، وترك جماعة من الناس الطبخ في الدور»[4].

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٣ ق١ ص٣٢٨).

(٢) ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٢ ص١٣٧–١٣٨)، السخاوي: وجيز الكلام (ص٢٣٨).

(٣) المقريزي: السلوك (ج٢ ق٣ ص ٧١٧)، الخطط (٣/ ٦٠)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص ٥٣٥ - ٥٣٦/ ٣٤٧).

(٤) المقريزي: الخطط (٣/ ٦٠).

كما أن كثيراً من الحِرَفيين والباعة والتجار فَقَدوا رءوسَ أموالهم، باحتراق دكاكينهم ورباعهم في أسواق «البُندقانيين» التي التهمتها الحرائق، «وكان في هذه الأسواق كثير من أرباب المعاش لبيع المأكولات من الشواء، والطعام المطبوخ، وأنواع الأجبان والألبان، والبوادر، والخبز، والفواكه، وعدة كثيرة من صناع قسي البندق، وكثير من الرسامين، وكثير من بيَّاعي الفقاع» (١).

وعن حالة الشدة والكرب التي أصابت الناس في الحريق المهول الذي وقع بمنطقة بولاق وعدة أماكن أخري في القاهرة وضواحيها (سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م) يقول ابن شاهين: « وحصل للناس بذلك الإجحاف الشديد، وافتقر بسببه خلق كثير ... وكان هذا الحريق من عقوبات الله تعالىٰ لعباده، جزاء ببعض ما كسبوا، وترك ما إليه نُدبوا» (٢). وقال ابن إياس: « ووقع في أمر هذا الحريق نوادر، وعجائب، وغرائب، لم يُسمع بمثلها قط، وافتقر بسبب ذلك خلق كثير من التجار وغيرهم، من كثرة حرق البيوت والدكاكين» (٣).

ومما سجَّله ابن تغري بردي عن المحنة الكبيرة، والمعاناة الشديدة التي وقعت للسكان في هذه الحرائق أنهم بذلوا – مع كبار رجال الدولة ومماليكهم وحواشيهم – جهودا مضنية في عمليات الإطفاء، والأمر لا يزداد إلا شدة، « إلىٰ أن صار الذي حضر من الناس لأجل طفي النار كالمتفرج، من عظم النار، والعجز عن إخمادها، وصارت النار إذا وقعت بمكان لا تزال به حتىٰ يذهب جميعه، ويضمحل عن آخره .... فيئس كل من له دار تحت الريح، وتحقق زوالها، وشرع في نقل متاعه وأثاثه، وهو معذور في ذلك، لأننا لم نشارك في عمرنا مثل هذا الحريق، لما اشتمل عليه من الأمور الغريبة.... » (٤).

---

(١) المقريزي: المصدر السابق (٣/ ١٨٩).

(٢) ابن شاهين: نيل الأمل (ج٢ ق٦ ص٣٩ – ٤٠)،

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (٢/ ٣٤٧).

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ١١٩ – ١٢٢).

الحرائق وغلاء الأسعار: ومن صور المعاناة التي تضرر منها الناس في حياتهم المعيشية والاجتماعية في أوقات الحرائق - والفترات التي تعقبها - وقوع الغلاء في أسعار السلع والمنتجات. ومن الطبيعي أن الحرائق الكبرىٰ تسببت في غلاء الأسعار، إما لتلف كميات كبيرة من السلع في الحريق، ومن ثَمَّ يرتفع ثمنها، وإما لحاجة الناس إلي بعض الأدوات والوسائل التي يقبلون علي شرائها في أوقات الحريق، أو بعده، لحاجتهم إليها. ولدينا إشارتان إلىٰ ذلك فيما يتعلق بحرائق القاهرة:

الأولي: في حريق القاهرة (سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م) ارتفعت أسعار الدِّنان والأزيار التي يُخزن الناسُ فيها المياه، حتىٰ «بلغ ثمن كل دنٍ خمس دراهم، وثمن الزير ثمانية دراهم»، وذلك بسبب الإقبال علي شرائها عندما كثرت الحرائق وانتشرت، ودمرت منشآت كثيرة، حتىٰ يكون الناس علي أهبة الاستعداد إذا اشتعلت الحرائق من جديد[١].

والثانية: عندما وقعت الفتنة والاضطرابات بين الأتراك في (ذي الحجة سنة ٩٠٢هـ/ يوليو١٤٩٧م) ثار «العِربان»[٢]، وأحرقوا القمح والشعير وهو في «الجُرُون» بعدد من المدن المصرية، ومنها القاهرة، فوقع الغلاء، وانتهي سعر القمح إلي ألف درهم لكل أردب، « واستمر الحال علي ذلك مدة طويلة» (كما يقول ابن إياس)[٣]، مما شكل معاناة للسكان في الحصول علي هذه السلعة التي لا غنىٰ عنها في الحياة اليومية.

---

(١) المقريزي: الخطط (٤/ ٤٤٣).

(٢) العربان في العصر المملوكي: هم العرب البدو الذين يقيمون كقبائل علي أطراف الصحراء في صعيد مصر، وفي بعض مناطق الوجه البحري، وكانوا يشكلون فئة هامة ومؤثرة في مجريات الأحداث في هذا العصر، وقاموا بعدد كبير من الثورات، تخللتها أعمال للسلب والنهب، ونتج عنها إنهاك شديد لاقتصاد البلاد (يراجع عنها إيمان مصطفي عبد العظيم: العربان في مصر بين الاعتداء والولاء زمن المماليك الجراكسة ٧٨٤ -٩٢٣هـ، بحث منشور بحوليات آداب عين شمس، المجلد ٤٠، اكتوبر، ديسمبر ٢٠١٢م، ص ٤١٩ – ٤٧٣).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ٣٧٠).

أعمال النهب والسلب: وقد تعرضت كثير من البيوت والحوانيت أثناء اندلاع الحرائق لحالات من النهب والسلب، مما كان يعود بالضرر الشديد على السكان في حياتهم المعيشية، واستقرارهم الاجتماعي، على الرغم من الجهود التي بذلها رجال الدولة المشرفون على عمليات الإطفاء، لمنع النهب والاعتداء على البيوت، والممتلكات، والمنشآت. ففي حريق (سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) في منطقة البُندقانيين « تلف فيه للناس من المال والثياب، والمصاغ وغيره بالحريق والنهب ما لا يعلم قدره إلا الله، مع ما كان فيه الأمراء من منع النهَّابة، وكفهم عن أموال الناس»[١].

وكان المماليك الجلبان – كما سلف القول – يقومون بالاضطرابات، وإشعال الحرائق في مساكن العامة، وبيوت الأمراء، وبعض المنشآت العامة، للقيام بنهبها، وسرقة ما فيها من الذخائر، والتحف، والفرش الثمينة، كما فعلوا – علي سبيل المثال – ببيت أبي الخير النحاس، حيث أحرقوا البيت (سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) «ونهبوا منه ما يفوق الوصف، وتَعدَّى الضرر لجيرانه» (كما يقول السخاوي)[٢]. وكما فعل بعضهم مع الأتابك «أزبك» (سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، حين أحرقوا «الطبلخانات» الخاصة به، والرباع المجاورة لها في منطقة الأزبكية، ونهبوا ما فيها [٣]. وفي السنة نفسها أحرق طائفة منهم بيت الأمير «آقبردي» (الدوادار)- بجوار حدرة البقر[٤] – ونهبوا رُخامه، وأخشابه، وأبوابه[٥]. وتكررت أعمال النهب أثناء الحرائق التي أشعلها المماليك الجلبان (سنتي ٩١٣، ٩١٥هـ/ ١٥٠٧، ١٥٠٨م)[٦] ، وفي أثناء الحرائق

---

(١) المقريزي: الخطط (٣/ ٦٠).

(٢) السخاوي: وجيز الكلام (ص ٦٤٧).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ٣٥٠).

(٤) حدرة البقر: مكانها اليوم في شارع المظفر الذي يبدأ من « السيوفية»، وينتهي بحديقة مسجد السلطان حسن (علي مبارك: الخطط التوفيقية ٢/ ١٥٧).

(٥) ابن إياس: المصدر السابق (٣/ ٣٦٤).

(٦) ابن إياس: نفسه (٤/ ١٢٣، ١٥٦).

التي نتجت عن الحروب بين العثمانيين والمماليك عند اقتحام العثمانيين لأحياء القاهرة، سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م(١).

وقد تنبه ابن تغري بردي – وهو يجيل النظر في البحث عن أسباب الحرائق التي وقعت في منطقة بولاق وغيرها من مناطق القاهرة (سنة٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م)، وانتهي تحليله إلىٰ أن الناس قد رجح عندهم أن المماليك الأجلاب هم الذين يقومون بإشعال الحرائق، فإذا صعدوا إلي الدور المحروقة للإطفاء نهبوا ما فيها من الممتلكات. وهذا هو ما أكد عليه المؤرخ المذكور في قوله: «ولا أستبعد أنا ذلك، لقلة دينهم، وعظم جبروتهم، عليهم من الله ما يستحقون، من العذاب والنكال»(٢).

تشويه البيئة: وقد تركت بعض الحرائق في المناطق التي اشتعلت فيها آثارًا من التلوث البيئي، بقيت مدة طويلة من الزمن، وتحولت كالمتفرجات، يرتادها الناس لمشاهدتها، وأصاب البيوت، والمنشآت، والأسواق، والأحياء، ألوان من التشوهات بسبب ما لحق بها من الحرائق، وما حدث لها من الهدم والإزالة، للسيطرة علىٰ النيران، وما حل بها من خراب. ومن الأمثلة علىٰ ذلك ما حدث لحي الباطلية الذي احترق بكامله (سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م)، حيث بقي خرابا عدة سنين، وكان الناس يضربون به المثل لمن يشرب الماء كثيرًا، فيقولون: «كأنَّ في بطنه حريق الباطلية»(٣)، أي مثالا علىٰ ما أحدثه الحريق من أهوال وشدائد، وما تركه من إتلاف وتدمير، وما احتاجه من كميات كبيرة من المياه لإطفائه.

وفي حريق (سنة٧٢١هـ/ ١٣٢١م) تركت النيران آثارًا في منابر بعض الجوامع، وحيطان المساجد والمدارس، وصار الشارع - بين حارة زويلة إلىٰ حارة الديلم - بحرًا من كثرة المياه التي يحملها الرجال والجمال لإطفاء الحريق. وقبل وقوع هذا الحريق بشهر - عندما أقبل بعض الغوغاء من عامة المسلمين علىٰ هدم بعض

---

(١) ابن إياس: نفسه (٥/ ١٥٣- ١٥٤).

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ١٢٥).

(٣) المقريزي: الخطط (٣/ ١٦).

الكنائس، وإحراق بعضها في القاهرة، بغير إذن من السلطان - شاهد الناس (عقب أدائهم لصلاة الجمعة، وعند خروجهم من المساجد) هولاً كبيرًا من كثرة الغبار والدخان المنبعث من الحريق(١).

وفي الحريق الذي اشتعل في دار التفاح والمناطق المجاورة لباب زويلة – أحد أبواب القاهرة – (سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م) «خربت أماكن جليلة كبيرة، كانت من أبهج المواضع وأحسنها» (كما يقول المقريزي)(٢)، وقد سجل القاضي « زين الدين طاهر» هذا التلوث الذي تركه هذا الحريق بقوله:

بباب زويلةَ وافَي حريقٌ   أزال معاني الحُسن المَصونِ
ودمَّرَ كلَّ عالٍ مِن بناءٍ   وصَيَّر كلَّ عالٍ مِثلَ دُونِ(٣)

ومما يدل علىٰ اتساع مساحة التلوث والتشويه التي خلفها هذا الحريق أن الناس استمروا في عمليات التنظيف والتطهير للمخلفات مدة ثلاثة أشهر متتالية(٤) . وقد أشار ابن إياس (المتوفينحو٩٣٠ه/ ١٥٢٤م) إلىٰ أن آثار هذا الحريق بقيت إلىٰ زمنه عند دار التفاح(٥).

وبعد أن كان «حي بولاق» من أجمل المتنزهات، ويرتاده الناس للفرجة والنزهة تحول إلىٰ صورة مشوهة بعد احتراقه (سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م)، «ومن يومئذ – كما يقول ابن إياس – تلاشىٰ أمر بولاق، وانحط قدرها، وكانت من أجل متفرجات الديار المصرية»(٦). وسجل ابن تغري بردي ما أحدثه هذا الحريق من تشويه للبيئة فقال: «كان الحريق العظيم بساحل بولاق الذي لم نسمع بمثله في سالف الأعصار إلا قليلا، بحيث إنه أتي علىٰ غالب أملاك بولاق»، ثم قال – واصفا تأثير النيران علىٰ المنشآت،

---

(١) المقريزي: المصدر السابق (٤/ ٤٤٠).
(٢) المقريزي: السلوك (ج٣ ق١ ص٣٢٨).
(٣) المقريزي: السابق (نفس الجزء، والصفحة)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٢٢١ -٢٢٢).
(٤) السخاوي: وجيز الكلام (٢٣٨).
(٥) ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٢٢١).
(٦) ابن إياس: المصدر السابق (٢/ ٣٤٧).

وتشويهها، وتغييرها لمعالمها -: « والنار موجودة في الأماكن، والجُدُر، والحيطان، والناس تأتي لبولاق أفواجًا، أفواجًا، للفرجة علىٰ هذا الحريق العظيم، حتىٰ صارت تلك الأماكن كبعض المتفرجات»[1].

ومن المظاهر الاجتماعية التي تسترعي الانتباه – والجديرة بالإشارة إليها – أن السكان كانوا يواسون بعضَهم بعضا عن مصابهم بالحرائق، تخفيفا من حجم الكارثة، كما حدث (سنة٨٩١هـ/ ١٤٨٦م) عندما وقع الحريق ببعض الأماكن في « السبع قاعات» الخاصة بأسرة «بني الجيعان»، ووصل الحريق إلىٰ محل «الديوان»، وغيره من ممتلكاتهم، وكان حجم الخسائر كبيرًا، فقد تسارع الناس للسلام عليهم، ومواساتهم، وكان السخاوي – الذي روىٰ هذه الحادثة – « ممن سلم، واغتم لهم بما وقع» (علىٰ حد قوله)[2].

وربما أعان البعض أصحاب الحريق بمد يد العون، تعويضا لهم عن الخسائر التي نتجت عن الحريق، كما حدث (سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م) عندما وقع الحريق في «حواصل السلطان» المجاورة لقاعة البحرة بالقلعة، فاحترقت خيام كثيرة، قدرت بنحو مائتي ألف دينار، فقد واسىٰ الأمراء السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٨- ١٤٩٦م)، وأجبروا خاطره، وصار كل من عنده خيام جديدة يقدمها للسلطان[3].

۞ ۞ ۞

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ١١٩، ١٢٢).

(٢) السخاوي: وجيز الكلام (ص ٩٧٨).

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ٣٠٠).

المبحث الثالث

دور الدولة والعامة في مواجهة الحرائق

تعاملت الدولة المملوكية مع الحرائق التي وقعت في القاهرة وضواحيها بكل جدية ومسؤولية، في حدود الإمكانيات المتاحة في ذلك العصر، فقد حاولت اتخاذ الإجراءات الممكنة للوقاية من الحريق، قبل وقوعه. كما حاولت – ممثلة في كبار مسئوليها – مكافحة الحريق عند وقوعه، وتوظيف الإمكانيات والطاقات المتاحة للسيطرة عليه، وإطفائه في أسرع وقت ممكن، ثم معالجة آثاره الناجمة عنه، من دمار وخراب، والحد من أضراره، وتخفيف معاناة الناس، عبر قيامها بإجراءات متعددة، كإعادة ما أتلفته الحرائق، وإعمار المناطق المتضررة، وتقديم التعويضات اللازمة.

أولاً: الإجراءات الوقائية:

(١) تخزين المياه وتوفيرها:

كانت المياه هي الوسيلة الأساسية التي تُستخدم في إطفاء الحرائق. لذا حرص المسئولون على توفير المياه بالقرب من بعض الأماكن المهمة، والمهددة أكثر من غيرها بخطر الحريق. ويشير المقريزي إلى أن الخلفاء الفاطميين (٣٥٨ - ٥٦٧هـ/ ٩٦٩-١١٧١م) كانوا يحرصون على وضع «فَسقية» مملوءة ماء، في كل محلة من محلات قصورهم، «خيفة من وقوع حريق في الليل»[١]. ولا نستبعد أن يكون هذا التقليد قد استمر في عصر السلاطين المماليك. حيث كانت «الفَسقيات» - وهي أحواض كبيرة تُملأ بالمياه - تُتخذ لأغراض شتى في الميادين العامة، وفي داخل المساجد، والمدارس، والبيمارستانات، والقاعات الكبرى، وساحات بيوت الأمراء وكبار التجار، وربما استُعين بهذه المياه في إطفاء الحرائق، كما حدث في حريق القاهرة سنة(٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، حيث «نُقلت المياه من المدارس، والحمامات، والآبار»[٢] لاستخدامها في إطفاء النيران. وكان في «القبة المنصورية» التي بناها

---

(١) المقريزي: الخطط (٢/ ٢٥٢).

(٢) المقريزي: المصدر السابق (٤/ ٤٤٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٥).

السلطان المملوكي سيف الدين قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٩٠) - وتقع تجاه مدرسته التي سماها المنصورية أيضًا- قاعة كبيرة، وفي وسطها «فسقية» يصل إليها الماء من فوّارة بديعة [١].

ولما وقع الحريق الذي اشتعل بحارة «الباطلية» [٢] في (جمادىٰ الآخرة ٦٦٣هـ/ مارس ١٢٦٥م) تم اتخاذ إجراء تخزين المياه، فوزّع علىٰ الناس «دنان الماء» [٣] لوضعها في الشوارع والأزقّة [٤]، لسرعة إطفاء الحرائق والسيطرة عليها قبل انتشارها [٥].

وكان انتشار الحرائق بشكل واسع في جميع أنحاء القاهرة علىٰ يد مجموعة من الأقباط إبّان الفتنة الطائفية التي قامت (سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م) سببًا في اتخاذ الدولة إجراءات احترازية، لحماية باقي المناطق من الحريق، حيث نُودي بأن يوضع بجانب كل حانوت - وفي سائر الحارات، والأزقّة، والدُّرُوب، والأسواق، والقياسير، والاصطبلات - بالقاهرة ومصر «زير» [٦] أو «دَنٌّ» كبيرٌ، مملوء بالماء [٧]. وقد أدىٰ ذلك إلىٰ ارتفاع ثمن «الدنّ» من ثلاثة دراهم، إلىٰ خمسة، وزاد سعر «الزير» إلىٰ ثمانية دراهم، لكثرة الإقبال علىٰ شرائها [٨].

وعندما اندلعت الحرائق الكبرىٰ (سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، وانتشرت بسرعة هائلة بفعل الرياح في العديد من المناطق بالقاهرة - بدءًا من منطقة البندقانيين- وأتت النار

---

(١) المقريزي: المصدر نفسه (٤/ ٢٢٦).

(٢) **الباطلية**: سبق تعريفها.

(٣) **الدنان**: مفرده «دن»، وهو البرميل، وعاء ضخم يُتخذ للخمر والخل ونحوهما (راجع: معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور أحمد مختار عمر ج١ ص ٧٧٤).

(٤) **الأزقة**: سبق تعريفها.

(٥) اليونيني: الذيل علىٰ مرآة الزمان (٢/ ٣٢١).

(٦) الزير: الحُبّ يُوضع فيه الماء، ويُصنع من الفخار. والجمع «أزيار»، و«أزوار» (المعجم الوسيط: زير).

(٧) ابن الوردي: التاريخ (٢/ ٣٨٨)، النويري: نهاية الأرب (٣٣/ ١٠)، المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٧)، الخطط (٤/ ٤٤٣).

(٨) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٢)، الخطط (٤/ ٤٤٣).

علىٰ كثير من الأسواق، والرباع، والبيوت، وأتلفت الكثير من الأموال والممتلكات، نُودي في الناس بأن يحافظوا علىٰ بيوتهم وحوانيتهم، فأسرعوا- علىٰ اختلاف فئاتهم- إلىٰ توفير المياه في الأزيار، والأحواض، وصاروا يتناوبون السَّهَر في الليل، حتىٰ يكونوا علىٰ أهبة الاستعداد لإطفاء الحرائق قبل اتساعها(١).

(٣) المحافظة على الأمن والنظام قبل وأثناء الحرائق:

وقد اتخذت الدولة المملوكية عددًا من الإجراءات الأمنية قبل وقوع الحرائق وعند وقوعها، للتقليل من خسائرها، كالدوريات التي يقوم بها العَسَس(٢) (الشرطة) علىٰ أبواب الدروب والحارات، والمناداة بمنع مبيت الغرباء في القاهرة في الأوقات التي تكثر فيها الحرائق، لمحاولة الوصول إلىٰ الجناة الحقيقيين، والقبض علىٰ المشتبه فيهم، ومنع «النَّهابة» من ممارسة السلب والنهب أثناء اندلاع الحرائق، للحفاظ علىٰ الممتلكات العامة والخاصة.

ومثل هذه الإجراءات الأمنية كانت متبعة في القاهرة منذ العصور السابقة لعصر المماليك(٣)، ففي (المحرم ٤٠٥هـ/ يوليو ١٠١٤م) كثر وقوع الحرائق في القاهرة وأريافها، ووقع بين الناس جدال حول أسبابها، ففرضت السلطات الأمنية حظر التجوال في المدينة، وعمَّمَت «سجلًّا » يُقرأ في الجوامع، يَحثُّ علىٰ زجر السفهاء وكَفهم عن أفعالهم، وأن يلتزم الناس بيوتهم بعد صلاة العشاء، فأُغلقت الدور والحوانيت والدروب من بعد صلاة المغرب(٤). ولا شك أن هذه الإجراءات جاءت في إطار السعي إلىٰ الحد من الحرائق ومنعها.

---

(١) المقريزي: الخطط (٣/ ٦٠).

(٢) العسس: هم جنود الشرطة الذين يطوفون في الليل للحراسة، والكشف عن أهل الريبة والفساد (أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/ ١٤٩٨).

(٣) ينقل المقريزي في (الخطط ٣/ ٣١٣) - في سياق تعريفه بجزيرة الروضة - عن ابن عبد الحكم، قال: «كان بالجزيرة بعد فتح مصر - في أيام عبد العزيز بن مروان أمير مصر - خمسمائة فاعل معدّة لحريق، يكون في البلد، أو هدم».

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأنباء الأئمة الفاطميين الخلفا (٢/ ١٠٥).

ويذكر المقريزي صورة لما كانت عليه الحالة الأمنية من استعدادات في العصر المملوكي لمواجهة وقوع الحرائق، والجرائم، فقد أشار إلىٰ أن نقطة تفتيش ومراقبة كانت ترتكز عند سوق «الجَمَلون الكبير»[1] الذي أصبح أحد الشوارع الكبرىٰ في القاهرة، ولا يخلو من تحركات الناس طوال الليل، ففي هذا الموضع يجلس «صاحب العسس» - الذي يطلق عليه العامة « والي الطَّوْف»- من بعد صلاة العشاء، ويَنصب أمامه مشعلا يُشعل النار طوال الليل، ومعه عدد من الأعوان، وكثير من السَّقَّائين[2]، والنجَّارين، والعَصَّارين، والهَدَّامين، يتناوبون فيما بينهم. وقد حدد المقريزي المهمة التي يقوم بها هذه المجموعة بقوله: «خوفًا من أن يحدث بالقاهرة في الليل حريق، فيتداركون إطفاءه، ومَن حدث منه في الليل خصومة، أو وُجد سكرانَ، أو قُبض عليه من السُّرَّاق»[3].

وتمدنا المصادر بعدد من المواقف التي تظهر حالة الانتباه الشديدة التي تحلَّىٰ بها المسئولون عن الأمن وعامة الناس عند اشتعال الحرائق المفتعلة، بحيث توصلوا- بحسِّهم الأمني- إلىٰ معرفة المشتبه بهم في إشعال تلك الحرائق، ومن ثَمَّ القبض عليهم، الأمر الذي ساعد علىٰ توقف الحرائق المفتعلة، أو الحد من انتشارها. ومن الأمثلة علىٰ ذلك ما حدث في حريق القاهرة (عام ٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، حيث لوحظ- وبعبارة المقريزي- «أن النار كانت تُرىٰ في منابر الجوامع، وحيطان المساجد، والمدارس، فاستعدوا للحريق، وتتبعوا الأحوال حتىٰ وجدوا هذا الحريق

(١) سوق الجملون الكبير: يعرفه المقريزي في (الخطط ٣/ ١٨٧) بأنه يقع بوسط سوق «الشرابشيين»، يُتوصل منه إلىٰ منطقة «البُندقانيين» وحارة «الجودرية» وغيرها، وأنشئ فيه حوانيت سكنها البزَّازون. وهذا السوق أوقفه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون علىٰ تربة مملوكه «يلبغا التركماني» عندما توفي سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م.

(٢) السقاؤون: مفرده «سقاء»، وهو الذي يحترف حمل الماء إلىٰ المنازل وغيرها (أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/ ١٠٨٢).

(٣) المقريزي: الخطط (٣/ ١٨٧).

(أي مصدره) من نَفْطٍ قد لُفَّ علىٰ خِرق مبلولة بزيت وقطران» (1)، ثم قبض علىٰ راهبين عند خروجهما من المدرسة الكَهارية (2) بعد العشاء الآخرة وقد ألقيا بالنار بها، واشتعلت النار في المدرسة، ورائحة الكبريت في أيديهما. كما قبضت العامة علىٰ رجل قبطي وجدوه في « جامع الظاهر » (3)، بالحسينية ومعه خِرَق علىٰ هيئة الكعكة، في داخلها قطران ونفط، وقد ألقىٰ منها واحدة بجانب المنبر، وظل واقفا إلىٰ أن انتشرت رائحة الدخان، فلما أراد الخروج من الجامع - وكان قد فطن به شخصٌ، وراقبه من حيث لا يشعر - أمسك الناس به، وتكاثروا حوله، وسلَّموه إلىٰ بيت الوالي وهو متنكر في هيئة المسلمين(4).

وبطبيعة الحال كانت أعمال النهب والسلب تقع أثناء الحرائق الكبرىٰ، وكان «النهَّابة» يستغلون انشغال الناس بالإطفاء، فيقومون بسرقة البيوت والمتاجر، خصوصا تلك التي يفر منها أصحابها نجاةً بأنفسهم. وقد حرص المسئولون الذين يشرفون علىٰ إطفاء الحريق علىٰ تأمين هذه الممتلكات وحمايتها من أعمال النهب والسرقة، كما حدث في الحريق الكبير الذي وقع (سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) في منطقة «البندقانيين»، حيث تَوَجَّه مجموعة من كبار الأمراء ومعهم مماليكهم، «ونزلوا عن خيولهم، ومنعوا العامة من النهب» (كما يقول المقريزي). ولما استفحل هذا الحريق، وامتد إلىٰ مناطق أخرىٰ، واستمرت النار عدة أيام أمر الوزير « منجك» (5)

(١) المقريزي: المصدر السابق (٤/ ٤٤٣).

(٢) المدرسة الكهارية: سبق التعريف بها.

(٣) جامع الظاهر: سبق التعريف به.

(٤) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٣)، الخطط (٤/ ٤٤٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٧-٦٨).

(٥) منجك بن عبد الله، سيف الدين، اليوسفي، الناصري. تنقل في خدمة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون الصالحي، حتي أصبح وزيرًا، وأستاداراً سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، وتمكن من الدولة. أسس جامعًا حمل اسمه. توفي سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م (ابن حجر: الدرر الكامنة ٤/ ١٣٠ - ١٣١).

الأميرَ علاء الدين علي بن الكُوراني (والي القاهرة) بالقبض علىٰ «الحرافيش»[1] وتقييدهم وسجنهم، خوفا من غائلتهم ونهبهم للناس عند وقوع الحريق، فتتبعهم وقبض عليهم في الليل من بيوتهم، ومن الحوانيت، حتىٰ خلت السكك منهم»، ثم أطلق سراحَهم بعد استقرار الأحوال[2].

ومن الإجراءات الأمنية التي اتخذت في هذا الحريق عدم السماح بإقامة الغرباء داخل القاهرة، وتتبعهم وإحضارهم، يقول المقريزي: « ونُودي في البلد أن لا يقيم فيها غريب، وطلبوا الخفراء وولاة المراكز، وأُمروا بالاحتفاظ (أي الحذر) وتتبع الناس، وأخذ من تُتوهَّم فيه ريبة، أو يُذكر بشيء من أمر »[3].

وقد يقع النهب أثناء الحريق، قبل وصول المسئولين إلىٰ مكانه، كما حدث في حريق (شهر المحرَّم، سنة ٩١٣هـ/ مايو ١٥٠٧م) حينما اندلعت النار بسبب شرارة تعلقت بمركب راسية علىٰ النيل، بمنطقة بولاق، وكانت تحمل الكتَّان، فاحترقت، وامتدت النار إلىٰ «شونة تِبن» في داخل مَعصرة، فأحرقتها، واستغل الغوغاء عدم وجود أحد من مسئولي الدولة، فقاموا بنهب ما في المعصرة من قصب، وسكر، وعسل[4].

(٣) استخدام الحجارة في البناء:

ولعل من الإجراءات الوقائية التي كانت تُتخذ لمقاومة الحرائق حرص السلاطين المماليك ومساعديهم من كبار رجال الدولة علىٰ استخدام الحجارة في تشييد المباني، لاسيما المنشآت العامة، كالمساجد، والمدارس، والبيمارستانات، والأسوار، والقلاع، والقصور، وغيرها، حيث تتميز الحجارة بالصمود أمام الحرائق

---

(١) الحرفوش: هو من لا حرفة له ولا صنعة، ولا يملك دكانا، وهو فقير أو في معنىٰ الفقير، وجمعه «حرافيش»، ويطلق علىٰ سفلة الناس وأراذلهم (محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص٦٠-٦١، أحمد عمر مختار: معجم اللغة العربية المعاصرة ١/ ١٧٧).

(٢) المقريزي: الخطط (٣/ ٦٠ - ٦١)، السلوك (ج٢ ق٣ ص٨١٨).

(٣) المقريزي: الخطط (٣/ ٦٠).

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور (٤/ ١١٤).

لمدة طويلة، وتمنع انتشارها إلىٰ أماكن أخرىٰ. وقد عبَّر ابن تغري بردي عن ذلك، فقال - بعد سرد قائمة المشاريع المعمارية والاقتصادية التي أنجزها السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون[1] - كالقصور، والجوامع، والخانقاوات، والأسوار، والحمامات، والقاعات، وغيرها -: «وكان غالب عمائره بالحجارة، خوفًا من الحريق»[2].

ومن أوضح الأمثلة علىٰ أهمية البناء بالحجارة في الحماية من انتشار الحريق والحدّ من خسائره ما ذكره السخاوي في معرض حديثه عن الحريق الكبير الذي وقع بدار التفاح ظاهر باب زويلة في أواخر (المحرم ٧٨٠هـ/ مايو ١٣٧٨م)، وأحرق أسواق الفكاهيين، والبقليين، والبراذعيين، فقد أكد علىٰ أنه « لولا أن السور منع النار النفوذَ لاحترق أكثر المدينة»[3].

ثانيا: مكافحة الحرائق:

(١) مشاركة رجال الدولة والعامة في مواجهة الحرائق وإطفائها:

عند استقراء ما ورد في المصادر من معلومات عن الحرائق التي شهدتها القاهرة المملوكية نجد أن دور الدولة – ممثلا في السلاطين، وكبار الأمراء ومساعديهم من المماليك – كان مهمًا وفعَّالاً بشكل كبير، في الإشراف علىٰ عمليات إطفاء تلك الحرائق، بل والمشاركة بأنفسهم في إطفائها، والسيطرة عليها، إضافة إلىٰ تأمين أماكنها والمناطق المجاورة لها.

(أ) أما عن الملوك والسلاطين: فكانت مهمتهم تنحصر – غالبا – في إصدار الأوامر إلي الوزراء والأمراء، لمتابعة عمليات الإطفاء والإشراف عليها، كما فعل الملك الناصر محمد بن قلاوون، فقد اهتم بمتابعة الحرائق التي شهدتها القاهرة (عام

---

(١) تولىٰ السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون ثلاث مرات؛ الأولىٰ (٦٩٣-٦٩٤هـ/ ١٢٩٣-١٢٩٤م)، والثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/ ١٢٩٩-١٣٠٩م)، والثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣١٠-١٣٤٠م).

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ١٨١).

(٣) السخاوي: وجيز الكلام (ص٢٣٨).

٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، وخاصة بعد أن صعد إلي أعلي القصر، وهاله ما رآه من حجم النيران، فأمر عددًا كبيرًا من الأمراء والمماليك بالنزول إلي أماكن الحرائق، لإطفائها، ولإنقاذ «الحواصل السلطانية»(١) ونقلها من بيت كريم الدين (ناظر الخاص)(٢) في حارة الدليم، حيث أصابته النيران. كما أنه تابع التحقيقات الجارية حول البحث عن المتسببين في الحريق، وأمر بتطبيق عقوبات صارمة علي من دبروا وأشعلوا فتيلها(٣).

كما أن السلطان الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٤-٧٧٨هـ/ ١٣٦٣- ١٣٧٧م) كان يتابع حريق «الدور السلطانية» بالقلعة الذي وقع في (جمادي الأولىٰ ،سنة ٧٧٤هـ/ أكتوبر١٣٧٢م). وقد استمرت النار ليلاً ونهاراً عدة أيام، وأعيي المماليك والفَعَلة إطفاءها، وحزن السلطان بسببه حزنا شديدا، «وتَنكَّد لذلك غاية النكَد» كما يقول ابن إياس(٤).

وعندما وقع حريق بولاق الكبير (سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م)، أرسل السلطان الأشرف سيف الدين إينال العَلَائي (٨٥٧- ٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١م) ابنَه أحمد (الذي تولي الحكم من بعده)، ليتابع عمليات الإطفاء، فنزل من قصره بالقلعة إلي مناطق الحريق، ووجد جميع أمراء الدولة حاضرين(٥).

وقد يشارك السلطان بنفسه في عمليات الإطفاء، كما حدث في الحريق الذي اشتعل في الحواصل السلطانية بالقلعة (شهر جمادي الآخرة سنة ٨٩٩هـ/ مارس١٤٩٤م) واحترقت كثير من الخيام، فقام السلطان «الأشرف قايتباي» بالمشاركة في إطفائه مع المماليك(٦).

---

(١) الحواصل السلطانية: سبق التعريف بها.

(٢) ناظر الخاص: سبق تعريف هذا المصطلح.

(٣) المقريزي: الخطط (٣/ ٤٤٤- ٤٤٥)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٤).

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق١ ص١١٢)، ابن شاهين: نيل الأمل (٢/ ٤٧).

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الظاهرة (١٦/ ١٢١-١٢٢).

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور (ج٣ ص٣٠٠)،

ولما أحرق المماليك الجلبان «الرَّبْع» الموجود بالقرب من بيت آقبردي (الدَّوَادار) المجاور لسوق «الجلاق» في (ذي القعدة ٩٠١هـ/ يوليو ١٤٩٦م) توجَّه إليهم السلطان «محمد بن قايتباي» ليمنعهم من أعمال التخريب والنهب[١].

(بـ) وقد بذل كبار رجال الدولة – من الولاة والوزراء، والأمراء، ومعهم أتباعهم من المماليك – جهودا مهمة في الإشراف علي إطفاء الحرائق والسيطرة عليها، وكانوا يتوجهون إلي أماكن وقوعها بمجرد اشتعالها، ومعهم أصحاب المهن – كالسقَّائيين، والبنَّائين، والنجَّارين، والهدَّامين – للقيام بأعمال الإطفاء، وكلما زاد حجم الحريق وخطورته زاد عدد الأمراء والمماليك المشاركين، وربما يتم استنفار كافة الأمراء والمماليك لمواجهة بعض الحرائق الكبرىٰ.

ومن أبرز المواقف التي تظهر إسهامات كبار رجال الدولة في إطفاء الحرائق مشاركة كل الأمراء المقدَّمين – وأتباعهم من المماليك – في مكافحة حريق القاهرة (سنة٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، فقد «اجتهدوا في طفيه» (كما يقول ابن تغري بردي) [٢]. وممن بادر بالمشاركة من الأمراء: الأمير «أرغون»[٣] (نائب السلطان)، والأمير «بَكْتَمُر»[٤] (الساقي)، والأمير «آقسُنقُر»[٥] (شادّ « ناظر» العمائر)، وهو الذي كان مسئولاً عن عمليات هدم وعزل الحريق. وشارك «أمراء الألوف» بأنفسهم في عمليات الإطفاء، وعددهم أربعة وعشرون أميراً، سوي مَن عَدَاهم من أمراء «الطبلخانات»،

(١) ابن إياس: المصدر السابق (ج٣ ص٣٢٢)،

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٤).

(٣) أرغون بن عبد الله، الدَّوَادار، الناصري، الأمير سيف الدين. من أنبل مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأعظمهم. اشتغل بالعلم، وبرع في الفقه وأصوله، وأذن له بالإفتاء والتدريس. ورقاه أستاذه الملك الناصر إلىٰ أن جعله دوادارًا، ثم ولاه نيابة السلطنة بمصر سنة ٧١٢ه/ ١٣١٢م. وكان تركيـًا فصيحـًا، محبـًا لأهل العلم، معظمـًا لهم، وابتني بمكة مدرسته للحنفية. توفي في شهر ربيع الأول سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣١م (ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٢/ ٣٠٦–٣٠٨ ، ابن حجر: الدرر الكامنة ١/ ٣٧٤).

(٤) بَكْتَمُر الساقي: سبق التعريف به.

(٥) آق سُنقُر الرومي: سبق التعريف به.

و«العشراوات»[١]. ومن صور مشاركتهم في مواجهة هذا الحريق أنهم كانوا يأخذون قِرب الماء ويتناولونها من السقائين، ويطفئون النار بأنفسهم، ويدوسون الوحل بأخفافهم. وقام كل من الأميرين «بَكتَمُر»، و«أرغون» (النائب) بالإشراف علي عملية نقل «الحواصل السلطانية» من مقرها في بيت «كريم الدين» (ناظر الخاص) إلي مكان آمن بدرب الرصاصي، بعيداً عن مناطق الحريق. ولما هدأت النار وخمدت، وعاد الأمراء إلي بيوتهم اشتعل الحريق مرة أخري في اليوم التالي برَبْع الملك الظاهر بيبرس، خارج باب زُويلة، وبقيسارية الفقراء[٢]، فتوجه الحُجَّاب، ومعهم الأمير «علم الدين سَنْجَر»[٣] (والي القاهرة) إلي هذه الأماكن، وعملوا علي إطفائها[٤].

ولما وقع حريق القاهرة (٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) في منطقة «البُندقانيين» توجه إليه الوزير «مَنجَك»، واصطحب معه مماليك الأمراء، ثم لما اشتد الحريق واتسع نطاقه - بسبب شدة هبوب الريح - ركب عدد كبير من الأمراء، ومعهم مماليكهم، وتوجهوا إلي مكان الحريق، ونزلوا عن خيولهم، وحثوا السقائين والناسَ علي الإطفاء، ومنعوا العامة من نهب البيوت التي احترقت، وكان من بينهم الأمير «شيخو»[٥]، والأمير «بَيبُغا

(١) **أمراء الطبلخانات**: هم الطبقة الثانية من الأمراء، وتلي طبقة «مقدَّمي الألوف» في الرتبة. ويصح أن تُضرب الطبول علىٰ أبوابهم، ويكون في خدمة الأمير منهم (٤٠) إلىٰ (٧٠) مملوكا، حسب إقطاعه. وأما أمراء العشراوات: فهم الطبقة الثالثة من الأمراء في الجيش المملوكي، ونصيب كل منهم إمرة عشرة فرسان، ومن هذه الطبقة يعين صغار الولاة في البلدان والأقاليم المختلفة (القلقشندي: صبح الأعشي ٤/ ١٥، محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية ص٢٢).

(٢) **باب زويلة وقيسارية الفقراء**: سبق التعريف بهما.

(٣) الأمير علم الدين سنجر الخازن، الأشرفيّ. تنقل في المناصب إلىٰ أن صار والي القاهرة سنة٧١٢ه/ ١٣١٢مـ، حتىٰ سنة٧٢٤ه/ ١٣٢٣م. اشتهر بدقة الفهم، وصدق الحدس، مع عقل وسياسة وإحسان إلىٰ الناس، وحب للعلماء. وهو الذي أنشأ السبيل علىٰ باب فندق مسرور الصغير، بدرب الخازن. توفي في جمادىٰ الأولىٰ سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م (المقريزي: الخطط ٣/ ٧٥).

(٤) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢١- ٢٢٢)، الخطط (٣/ ٤٤٣)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٤ - ٦٧).

(٥) الأمير شيخو بن عبد الله العمري، سبف الدين الناصري. كان تركي الجنس، اشتراه الملك الناصر محمد بن قلاوون، وترقىٰ بعد موته حتىٰ صار أتابك العساكر بالديار المصرية. وهو أول من سمي بالأمير

أُرُوس»[1] (نائب السلطنة)، والأمير «قُبلاي»[2] (حاجب الحُجَّاب)[3]، والأمير «مغلطاي»[4] (أمير آخور)[5]، وغيرهم. وبصف المقريزي حجم الجهود التي بذلها هؤلاء القادة بقوله: « ثم وُكِّل بالحريق بعض الأمراء مع والي القاهرة (علاء الدين علي بك الكوراني)، ومضي بقية الأمراء إلي بيوتهم، وبهم من التعب ما لا يُوصف، فأقامت النار بعد انصرافهم ثلاثة أيام وهي لا تُطفأ». وقال أيضـًا في هذا السياق: «

الكبير، وصارت من بعده وظيفة. أنشأ جامعًا وخانقاه بخط صليبة أحمد بن طولون. توفي في السابع من ذي الحجة سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م (النجوم الزاهرة ١٠/ ٣٢٤).

(١) بيبُغا أروس بن عبد الله القاسمي، الأمير سيف الدين. كان من أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم ولىٰ نيابة السلطنة بالديار المصرية بعد الناصر مدة، ثم نقل إلىٰ نيابة حلب. وقد سعىٰ إلي طلب الملك لنفسه، وفشلت محاولته، وقبض عليه، وسجن في قلعة حلب، وقتل بها سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م (ابن حبيب: تذكرة النبيه ٣/ ١٥٨ -١٥٩، ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٣/ ٤٨٦).

(٢) الأمير سيف الدين قبلاي بن عبد الله، الناصري. من مماليك الناصر محمد بن قلاوون؛ وولي نيابة الكرك، ثم الحجوبية الثانية بمصر، ثم نقل إلىٰ الحجوبية الكبرىٰ بها، ثم ولي نيابة السلطنة بالديار المصرية. توفي في شهر ربيع الأول، سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/ ٣٢١).

(٣) حاجب الحجاب: هو كبير الحجاب. ووظيفته النظر في مخاصمات الأجناد في أمور الإقطاعات ونحو ذلك، تارة بنفسه، وتارة بمشاورة السلطان، أو بمشاورة النائب، وكان إليه تقديم من يُعرض، ومن يُردّ، وعَرض الجند. وكان حكم الحُجَّاب في الدولة المملوكية منذ بدايتها إلىٰ أيام الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون (٧٤٦ – ٧٤٧هـ) لا يتعدىٰ تلك المهمة، ثم أخذوا يتدخلون في أمور الناس، ويحكمون في كلّ جليل وحقير، ويتعدون علىٰ صلاحيات قضاة الشرع. وقد عد المقريزي ذلك من فساد أحوال الحكم والسياسة (المقريزي: الخطط ٣/ ٣٨٢).

(٤) الأمير الوزير علاء الدين مغلطاي بن عبد الله الجمالي. أصله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، ومن خواصه. رقاه في المناصب حتي ولاه أستاداراً، فعظم أمره، ثم ولاه الوزارة وحكَّمه في جميع المملكة، فحسنت سيرته، وأبطل المظالم. أنشأ جامع التوبة في «بين السورين»، ومدرسة الجمالية في درب ملوخيا، بالقرب من رحبة باب العيد داخل القاهرة. توفي يوم الأحد ١٧ المحرم، سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، ودفن بمدرسته (النجوم الزاهرة ٩/ ٢٩١ -٢٩٢).

(٥) أمير آخور: وظيفة مَن يتولىٰ علىٰ ما في إصطبل السلطان أو الأمير، من الخيل والإبل وغيرها، مما هو داخل في حكم الإصطبلات. والكلمة مركبة من لفظين، أحدهما عربي، وهو «أمير»، والثاني فارسي، وهو «آخور»، ومعناها: «أمير المعلف»، لأنه المتولي لأمر الدواب (القلقشندي: صبح الأعشىٰ ٥/ ٤٦١).

وتعب والي القاهرة في مدة الحريق تعبًا لا يُوصف، فإنه أقام مدة شهر لا يكاد ينام هو وحَفَدته، فإنه لا يخلو وقت من صَيحة تقع بسبب الحريق»[١].

وفي السنة نفسها اندلع الحريق في «شُونة حَلفاء»[٢] مجاورة لمطابخ السكر السلطانية، فركب القاضي «علم الدين بن زنبور»[٣] (ناظر الخاص)، ومعه جماعة من المسئولين، وخرج عامة أهل مصر، وتكاثروا علي الشونة حتىٰ طُفئت[٤].

وعندما اشتعل الحريق بداخل «الدُّور السلطانية» بقلعة الجبل (سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م) دخل الأمراء إليه، وأخمدوه[٥]. كما أن المماليك بذلوا جهداً كبيراً في إطفاء حريق آخر وقع بالقلعة في (جمادي الأولي، سنة ٧٧٤هـ/ أكتوبر١٣٧٢م)، حتىٰ أعياهم إطفاؤه، بسبب قوته وانتشاره[٦].

ولما وقع حريق بظاهر بابَىْ زُوَيلة عند دار التفاح في (ذي الحجة سنة ٧٧٩هـ / مارس ١٣٧٨م) - أو في المحرم ٧٨٠هـ - توجه إليه كل من الأمراء: «بركة الجُوياني» (أمير مجلس)، و«أيتمش» (أمير آخور كبير)، و«تغري برمش» (حاجب الحجّاب)، و«قرا دمرداش الأحمدي» (أمير الأمراء المُقدَّمين الألوف)، واصطحبوا معهم أعداداً كبيرة من مماليكهم، واشتركوا في الإطفاء بأنفسهم، وكانوا يأمرون بإحضار السقائين من بيوتهم، ويلزمونهم بنقل الماء في القِرب لإطفاء الحريق[٧].

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٢ ق٣ ص٨١٦ -٨١٧)، الخطط (٣/ ٦١)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٥٣٥ - ٥٣٦).

(٢) الشونة: سبق تعريفها.

(٣) الوزير علم الدين عبد الله بن تاج الدين أحمد بن إبراهيم، الشهير بابن زنبور، المصري القبطي. ولي الوزارة وناظر الجيش والخاص، ولم تجتمع لأحد قبله في وقت واحد. ثم نكب، وصودرت أمواله وذخائره، ومات بقوص معتقلاً سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/ ٢٩٩).

(٤) المقريزي: الخطط (٣/ ٦١).

(٥) المقريزي: السلوك (ج٣ ق١ ص١٥٨).

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص١١٢).

(٧) المقريزي: السلوك (ج٣ ق١ ص٣٢٨)، ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٢ ص ١٣٧ -١٣٨)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٢٢١).

وفي المنطقة نفسها وقع حريق مرة أخري (سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م)، فأسرع كل من الأمير «يشبك» (الخازندار)، والأمير «فارس» (حاجب الحُجَّاب)، وقاما - بمن معهما من المماليك - بإطفاء الحريق(١).

كما قام الأمير «فارس» (حاجب الحُجَّاب)، والأمير «تَمُربُغا» المَنجكي(٢) (الحاجب) بالإشراف علىٰ إطفاء حريق كبير وقع بظاهر المدرسة الصالحية (سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)(٣).

وفي الحريق الذي اندلع في (ربيع الأول سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م) في «بركة الرَّطلي»، عند الجسر، بالقرب من قنطرة الحاجب(٤)، نزل إليه عدد من المماليك، ونجحوا في إطفائه، وكان معهم حاجب الحجاب، ووالي القاهرة آنذاك(٥).

وقد بذل حاجب الحجَّاب - وغيره من الأمراء والأعيان وكثير من الناس - جهوداً كبيرة في إطفاء حريق بولاق (سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م)، وحينما انتشرت النار واتسعت في أماكن أخري - بسبب شدة الرياح - نزل جميع أمراء الدولة بمماليكهم وحواشيهم، شيئًا بعد شئ، والأمر لا يزداد إلا شدة، إلي أن صار الذي حضر من الناس - لأجل الإطفاء - كالمتفرج من عظم النار والعجز عن إخمادها، «واستمر الأمراء والأعيان يشاهدون الحريق، ويطفئون ما قدروا عليه من أطراف المواضع المنفردة، وأما الحريق العظيم فلا يستجرئ أحد أن يقربه لعظمه، بل يشاهدونه من بُعْدٍ». وقد استمر الحريق إلي اليوم التالي، والجميع يحاول إطفاءه، ولم ينجحوا في

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٣ ق٢ ص٩٠١)، ابن شاهين: نيل الأمل (ج١ ق٢ ص ٣٩٥).

(٢) تمربغا المنجكي: من كبار الأمراء في عهد السلطان الظاهر برقوق، وابنه فرج. تولىٰ عدة مناصب في مصر والشام، مثل «أمير آخور كبير»، و«رأس نوبة»، و«حاجب ثان»، و«نيابة صفد» (المقريزي: السلوك ج٣ ق٢ ص ٦٠٥، ٦٦٠، ٨٢٤، ٨٢٨، ٨٥٨، ٩٠٨، ٩٣١، ج٣ ق٣ ص ٩٦٧، ١٠٧٧).

(٣) المقريزي: السلوك (ج٣ ق٢ ص٩١٨)، ابن حجر: إنباء الغمر (٢/ ٣٨).

(٤) بركة الرطلي، وقنطرة الحاجب: سبق تعريفهما.

(٥) المقريزي: السلوك (ج٣ ق٢ ص٥٤٣)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٣٦٩).

السيطرة عليه، إلا بعد أن سكنت الريح، فاجتهدوا في عمليات الإطفاء، وهَدم ما تعلقت به النار من الأماكن»[1].

وبادر «المماليك» إلي إطفاء حريق كبير وقع بباب السلسلة (أحد أبواب القلعة) في (ربيع الآخر، سنة ٨٨١هـ/ يوليو ١٤٧٦م) ولم يستطيعوا إطفاءه، بسبب شدته[2].

(ج) أما أصحاب المهن: فقد كان لهم دور كبير في إطفاء الكثير من الحرائق، وفي مقدمتهم «السقاؤون»، الذين كان يُستعان بهم في عمليات الإطفاء بحكم مهنتهم. ويذكر المقريزي في (الخطط) أن الوزير المأمون بن البطائحي[3] – أحد الوزراء في العصر الفاطمي – أصدر أمراً إلي والي مصر، ووالي القاهرة (سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م) باستدعاء عُرفاء السقائين، وإلزامهم بالحضور «متىٰ دعت الحاجة إليهم ليلاً ونهاراً»، وأن يبيتوا ليلاً عند «باب المَعُونة»[4]، ومعهم عشرة من الفَعَلَة بالطوارئ والمساحي[5]. ويظهر أن اتخاذ هذا الإجراء مع السقائين حتىٰ يكونوا علي استعداد دائم لمواجهة الحرائق عند ظهورها.

وقد وصل عدد السقائين بمصر المملوكية – حينما زارها ابن بطوطة في «رحلته» الشهيرة – إلىٰ اثني عشر ألف سقاء علىٰ الجمال[6]. ويذكر البلوي في رحلته (تاج

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ١٢١ -١٢٢). ابن شاهين: نيل الأمل (ج٢ ق٦ ص ٣٩ - ٤٠).

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور (٣/ ١٢٠)، السخاوي: وجيز الكلام (ص ٨٧١).

(٣) البطائحي: أبو عبد الله المأمون بن البطائحي، وزير الدولة العبيدية (الفاطمية)، وهو الذي أعان الخليفة الفاطمي الآمر بالله علىٰ الفتك بالأفضل أمير الجيوش، وولي منصبه، وكان شهما مقداما، جوادا بالأموال، سفاكا للدماء. وقد تحالف مع أخي الخليفة الآمر علىٰ قتل الآمر، ودخل معهما أمراء، فعرف بذلك الآمر، فقبض علىٰ البطائحي، وصلبه سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م (الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٥٣).

(٤) **باب المعونة**: هو حبس المعونة، ويقع بجوار الدار المأمونية، ويجاور الصاغة القديمة، وكان يسجن فيه أصحاب الجرائم، زمن الدولة الفاطمية، والدولة الأيوبية، إلىٰ أن جعله الملك المنصور قلاوون قيسارية العنبر (سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)، وأسكن فيه العنبرانيين (المقريزي: الخطط ٣/ ٣٨٧، ٣٨٨، ٣/ ١٧٧، ١٨٦).

(٥) المقريزي: الخطط (٢/ ٣٨٧ – ٣٨٨).

(٦) ابن بطوطة: رحلة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (ص٣٢).

المَفْرق) أن عدد الجمال الداخلة إلي القاهرة بالماء في كل يوم مائتا ألف جمل، ماعدا البغال والحمير، والسقائين الذين بالزُّقوق(١) وغيرهم، «فإن ذلك شئ لا ينحصر». ثم ذكر أن دكاكين السقائين المُعدَّة للسَّقىٰ في القاهرة بلغت ستين ألف دكان، ماعدا السقائين بالأكواز والأكواب في الطرق والأسواق وغيرها(٢).

ومن المؤكد أن هذا العدد الكبير من السقائين في القاهرة كان لهم دور مهم في توفير كميات كبيرة من المياه لإطفاء الحرائق المشتعلة، وظهر ذلك جليًا في حريق (سنة٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، حيث قاموا بنقل المياه من المدارس، والحمامات، والآبار إلي أماكن الحرائق، « ولم يبق أحدٌ من سقَّائي الأمراء، وسقَّائي البلد إلا وعمل» (كما يقول المقريزي)(٣)، وأشار إلي أن الماء «صار من باب زويلة إلي حارة الديلم في الشارع بحراً، من كثرة الرجال والجمال التي تحمل الماء»(٤).

كما شارك جميع السقائين الموجودين بالقاهرة في إطفاء الحرائق الكبرىٰ التي اشتعلت في أنحاء المدينة (سنة٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، والتي استمرت عدة أيام، «ولم يبق بالقاهرة سقاء إلا وأُحضر لإطفاء الحريق، وكانت الجمال تحمل الرَّوَايا(٥) بالماء من باب زُويلة إلي البندقانيين»(٦).

وفي حريق دار التفاح بظاهر باب زويلة (سنة٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م) كان السقاؤون يُستَدعون من بيوتهم، ويأتون بالماء في القِرَب(٧).

وإلي جانب الاستعانة بالسقائين في جلب المياه لإطفاء الحرائق كان المسئولون في الدولة يستعينون بأصحاب بعض المهن الأخرىٰ في عمليات الإطفاء، كالنجارين،

---

(١) الزُّقوق، والأزقَّة: جمع «زقاق»، وهو الطريق الضيق، نافذا أو غير نافذ (المعجم الوسيط: زق).

(٢) البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق (١/ ٢١٨).

(٣) المقريزي: الخطط (٤ / ٤٤٣).

(٤) المقريزي: المصدر السابق، والجزء، والصفحة. وسبق التعريف بباب زويلة وحارة الديلم.

(٥) الروايا: جمع راوية، وهي المزادة، أو القربة التي يحمل فيها الماء (المعجم الوسيط: روي).

(٦) المقريزي: السلوك (ج٢ ق٣ ص٨١٧).

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص٢٢١).

والهدَّامين، والحجَّارين، والفَعَلة. وينحصر دور هؤلاء المِهَنيين في السيطرة علي الحريق بهدم بعض البيوت، لكي لا يمتد إلي مساحات أوسع، ففي حريق القاهرة (سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م) « جُمع سائر البنائين والنجارين، فهدمت الدور من أسفلها»، واضطروا إلىٰ هدم أربعة عشر داراً مجاورة لبيت «كريم الدين» (ناظر الخاص) لإنقاذ «حواصل السلطان» التي كانت محفوظة في ذلك البيت[1].

ولما اشتعل الحريق في دور الحريم بالقلعة (سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) شارك «الفَعَلة» في إطفائه، وبذلوا جهدا كبيرًا حتىٰ أعياهم [2].

(٣) وسائل إطفاء الحرائق:

ثمَّةَ طريقتان لإطفاء الحرائق التي وقعت في القاهرة خلال العصر المملوكي حسب المعلومات التي أمدتنا بها المصادر:

الطريقة الأولي: غمر مكان الحريق بكميات كبيرة من المياه. حيث كان الإطفاء بالماء هو الوسيلة المتاحة والأفضل بطبيعة الحال لإخماد الحرائق والسيطرة عليها. وقد ذكرت المصادر معلومات عن استخدام الماء بكثرة هائلة في إطفاء بعض الحرائق، كحريق القاهرة (عام٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، فقد استغرق أيامـًا لإطفائه، حتىٰ «صار الماء من باب زويلة إلي حارة الديلم في الشارع بحراً، من كثرة الرجال والجمال التي تحمل الماء، ووُكِّلَ بأبواب القاهرة من يَرُدُّ السقَّائين إذا خرجوا من القاهرة لأجل إطفاء النار، فلم يبق أحد من الأمراء وسقّائي البلد إلا وعمل، وصاروا ينقلون الماء من المدارس والحمامات»[3].

وفي حريق (عام٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) جُلبت كميات كبيرة من المياه من ناحية باب زويلة إلي منطقة «البندقانيين». ويسجل المقريزي المشهد الذي كان عليه الناس في استخدام المياه لإطفاء هذا الحريق، فيقول: «ولم يبق أحد من الناس من جميع

---

(١) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٥- ٦٦).

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص١١٢).

(٣) المقريزي: الخطط (٤ / ٤٤٣)، السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢١).

الفئات - أعلاهم وأدناهم - حتىٰ أعدَّ في داره أوعية ملآنة بالماء، ما بين أحواض وأزيار، وصاروا يتناوبون السهر في الليل، ومع ذلك فلا يدري أهل البيت إلا وقد وقعت النار في بيتهم، فيتداركون طفيها، لئلا تشتعل ويصعب أمرها»(١).

والطريقة الثانية: هي محاصرة الحريق بالهدم، لوقف انتشاره وامتداده إلي أماكن أخري، وعزله عن الوصول إليها. وقد استخدمت تلك الطريقة في عدد من الحرائق التي وقعت في القاهرة، من أشهرها حريق (عام ٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، حيث تعرضت كثير من البيوت للهدم، وكانت تُهدم من أسفلها، والنار تحرق سقوفها (٢). ولكي يتم إنقاذ «الحواصل السلطانية» من بيت «كريم الدين» (ناظر الخاص) – حيث كانت محفوظة في هذا البيت – هدم بجواره ومن أمامه ستة عشر – أو سبعة عشر - بيتًا في حارة الديلم(٣). وقد سجل المقريزي كثرة ما هدم من البيوت في هذا الحريق فقال: « وأخذ جميع النجارين وسائر البنائين في هدم الدور، فهدم في هذه النوبة ما شاء الله من الدور العظيمة، والرباع الكبيرة»(٤).

وبهذه الطريقة تم التعامل في إطفاء حريق القاهرة (سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) الذي اشتعل في أسواق البندقانيين، والفقاعين، وغيرها، وامتد إلي الفنادق والرباع المجاورة لها، وقد وصف المقريزي عمليات الهدم التي تمت لتحجيم هذا الحريق، فيقول - بعد ذكره للأماكن التي امتد إليها الحريق- :« وعظم الأمر، والأمراء جميعهم علي أرجلهم بمن معهم، والمُقيَّدون بالمساحي(٥) بين أيديهم، تَهدم الدُّورَ، وتُطفئ النارَ،

---

(١) المقريزي: الخطط (٣/ ٦٠).

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٥).

(٣) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٥ - ٦٦). وسبق التعريف بحارة الديلم.

(٤) المقريزي: الخطط (٤ / ٤٤٣).

(٥) المساحي: جمع «مسحاة»، وهي المجرفة من الحديد، والميم زائدة، لأنه من السحو، أي الكشف والإزالة (ابن منظور: لسان العرب: مسح).

والناسُ في أمرٍ مريج». ثم يتابع كلامه بقوله: « وشمل الهدم والحريق ما هنالك من العمائر»[1].

وفي الحرائق الكبرىٰ التي وقعت بحي بولاق (سنة٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م) كان الناس « في غاية الاجتهاد في إخماد النار بالطَّفي والهَدم، وهي لا تزداد إلا قوة وانتشارًا»[2]. وتم هدم جزء كبير من باب السلسلة – أحد أبواب القلعة – حينما دب فيه حريق عظيم في (ربيع الأول سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م)[3].

(٣) اكتشاف المتسببين في الحرائق ومعاقبتهم:

يذكر المقريزي في حديثه عن «توقيعات» السلاطين وكبار رجال الحكم في الدولة المملوكية أن «والي القاهرة» كان يرفع إلي السلطان تقريراً يومياً يُطلق عليه «ورقة الصباح»، يتضمن ما يحدث من المستجدات، كالحرائق، والسرقات، والجرائم، ليأمر السلطان فيها بما يراه[4].

وقد اهتم سلاطين المماليك، وكبار مساعديهم، بالتحقيق في أسباب وقوع الحرائق، وإصدار العقوبات المناسبة في حق المتسببين فيها. فعندما وقع الحريق في حارة «الباطلية» بالقاهرة (سنة٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م)، واحترقت بأسرها، تمَّ التوصل إلي أن بعض الأقباط هم الذين تسببوا في هذه الحرائق، فاعتبر السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م) أن ذلك ناقض لعهد الذمة، فشدَّد في عقوبتهم، وأمر بحرقهم، فلما أراد أن ينفذ فيهم العقوبة سألوه العفو عنهم، ثم تشفَّع فيهم بعض الأمراء، ومنهم الأمير «فارس الدين أقطاي» (أتابك العسكر)، فأفرج السلطان عنهم، شريطة أن يُورِّدوا إلي خزينة الدولة خمسمائة ألف دينار، يدفعون منها خمسين ألف

(١) المقريزي: السلوك (ج٢ ق٣ ص٨١٧).
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١٦/ ١٢٠).
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور (٣ / ١٢٠).
(٤) المقريزي: الخطط (٣/ ٣٦٨).

كلَّ عام، يُؤخذ منهم بحسب قدرة كل واحد منهم، إضافة إلي إلزامهم بإصلاح ما احترق من البيوت، وألا يخرجوا عما هو مرتب عليهم من التزامات(١).

وقد تولي البَطْرَيرك(٢) توزيع المال علي «المسيحيين»، ليعرف كل فرد مقدار المبلغ الذي يقوم بدفعه. وكَلَّف السلطان بيبرس الأميرَ «سيف الدين بلبان المهراني» بالإشراف علي جمع المال، فجُمع في عدة سنين(٣).

وجرىٰ تحقيق لمعرفة أسباب الحرائق الكبرىٰ التي شهدتها القاهرة (سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، وكان لذلك دور مهم في توقف هذه الحرائق، حيث تبين أنها مفتعلة، لوجود كعكات (فتائل) نفطية في أماكن الحريق، وكانت تُلقي علي أسطح المنازل، وتم القبض علي اثنين من «الأقباط» وهما خارجان من المدرسة «الكَهارية» وقد ألقيا فيها النيران، وفي أيديهما أثار النفط والكبريت، وأحضرهما الأمير «علم الدين سَنْجر» (والي القاهرة) إلي السلطان، فأمر بالتحقيق معهما وعقوبتهما، فاعترفا بأنهما من «دير البغل»(٤)، وأنهما هما اللذان أحرقا سائر الأماكن، «نكاية للمسلمين بسبب هدمهم للكنائس»، ثم قُبض علي قبطي ثالث وهو خارج من «جامع الظاهر» بالحسينية، وفي يديه أثر النفط، وكان بحوزته فتائل مبللة بالقطران، وضعها بجوار منبر الجامع، فلما حقق معه الأمير ركن الدين بيبرس (الحاجب)، واستخدم معه أسلوب التهديد والتخويف أقر واعترف بأن جماعة من الرهبان اجتمعوا، ووفروا المال اللازم لإعداد فتائل النفط، وكلَّفوا عدداً منهم لينفِّذوا أعمال الحرق.

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام (٤٨/ ١٧)، ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات (١/ ٢٣٤)، اليونيني: ذيل مرآة الزمان (٢/ ٣٢١)، المقريزي: السلوك (ج١ ق٢ ص٥٣٥)، الخطط (٣/ ١٥ - ١٦). ابن تغري بردي: المنهل الصافي (٣/ ٤٤٤)، ابن إياس: بدائع الزهور (ج١ ق١ ص٣٢٤).

(٢) جاء في الجد\ول التي ذكرها د. عبد المجيد دياب في كتابه (تاريخ الأقباط، ص ٦٩) – التي تضم أسماء بطاركة الكنيسة المصرية منذ تأسيسها إلىٰ اليوم – أن اسم البطريرك (الذي كان موجودا حينما وقع حريق (سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م) هو «اثناسيوس الثالث».

(٣) المقريزي: الخطط (٣/ ١٦).

(٤) دير البغل: سبق التعريف به.

وقد تمكنت الشرطة من القبض علي أربعة عشر راهبا بدير البغل، وجُهزت لهم حفرة كبيرة بشارع الصليبة(١)، وأُحرق فيها أربعةً منهم. كما اعترف بعض المقبوض عليهم علي راهب بـ «دير الخندق»(٢) أنه كان ينفق المال في عمل النفط للإحراق، ومعه أربعة آخرون، فأخذوا جميعـًا وسُمِّروا(٣).

كما أن السلطان أمر «كريم الدين الكبير» (ناظر الخاص) بإحضار «البطريرك» المسئول عن الأقباط، ليتحدث معه في أمر الحريق، فلما استدعاه بالغ في إكرامه «علي عادة القبطية» (كما يقول ابن تغري بردي) (٤)، وأعلمه بما وقع، وأتي إليه بالأقباط الثلاثة، وأقروا أمامه بما فعلوه، فبكىٰ البطريرك، وقال: «هؤلاء سفهاء النصارىٰ قد عمدوا بما فعل سفهاؤكم بالكنائس من غير إذن السلطان». ثم فوض السلطانَ في أن يحكم فيهم بما يراه، وانصرف في حماية الأمير «كريم الدين»(٥).

ولابد من التأكيد هنا علىٰ أن هذه العقوبات التي عوقب بها المتسببون من الأقباط في هذه الحرائق إنما كانت بصفتهم «مواطنين»، ولا علاقة لها بديانتهم. وفي المقابل عُوقبت مجموعة الغوغاء من عامة المسلمين الذين قاموا بهدم وحرق بعض الكنائس في القاهرة، وأشاعوا – كذبـًا – أن السلطان محمد بن قلاوون أمر بذلك، لكن حقيقة الأمر أن السلطان غضب من هذا التصرف، وأصدر أوامره بكف هؤلاء العامة، والقبض علىٰ المتسببين منهم في عمليات النهب الحرق(٦).

---

(١) شارع الصليبة: سبق تعريفه.

(٢) دير الخندق: سبق تعريفه.

(٣) المقريزي: السلوك (ج٢ ق١ ص٢٢٣ -٢٢٤)، الخطط (٤/ ٤٤٧)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٧ - ٦٨).

(٤) ابن تغري بردي: المصدر السابق (٩/ ٦٨).

(٥) المقريزي: الخطط (٤/ ٤٤٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (٩/ ٦٨).

(٦) المقريزي: المصدر السابق (والجزء، والصفحة)، ابن تغري بردي: المصدر السابق (والجزء، والصفحة).

وهذه المواقف تظهر قيمة التحقيقات في معرفة المتسببين في حوادث الحرائق، وتطبيق العقوبات المناسبة عليهم.

ومن العقوبات الرادعة في حق المتسببين في الحرائق العقوبة التي أصدرها الأمير «طراباي» (رأس نَوْبة النُّوَب) في شهر ذي القعدة (سنة ٩١٢هـ/ فبراير ١٢١٦م) في حق رجل فلاح قام بحرق «خزائن الدِّريس» التي تقع في «درب الخازن» بالقاهرة، وكانت ملكـًا للأمير، فلما قُبض علي الرجل عاقبه الأمير بنفسه، فضربه بالمقارع، ثم قطع يده اليمين، ورجله اليمين، وشهَّر به في شوارع القاهرة، وأراد حرقه بالنار فشفع فيه بعض الأمراء(١).

وقد تكون هذه العقوبة بدافع الانتقام الشخصي، حيث كانت هذه المخازن ملكـًا خاصـًا للأمير«طراباي». والذي يؤيد ذلك ما جاء في رواية ابن إياس، فقد ذكر أن بعض الجيران شاهدوا الرجل وهو يلقي بالنار في خزائن الدِّريس، وكان يعمل في البناء بالقرب من الخزائن. إلا أن الأمير لم يتحقق من صحة ما نُقل إليه، «وربما كان هذا الكلام كذبـًا علي الرجل» كما يقول ابن إياس (٢).

وفي (شهر صفر عام ٩١٨هـ/ أبريل ١٥١٢م) قام أحد الغلمان بحرق بيت أستاذه لنهبه، واحترق معه عدة بيوت وربوع، فلما قبض عليه عُرض علي السلطان «قانصوة الغُوري»، فأصدر أمراً بمعاقبته عقوبة شديدة ورادعة، وهي أن يُشنكَل ويُعلَّق في المكان الذي أحرقه، وتم تنفيذ هذه العقوبة(٣).

ثالثا: معالجة آثار الحرائق (التعويضات وإعادة الإعمار):

قامت أجهزة الدولة المملوكية بجهود كبيرة في معالجة آثار الكوارث الطبيعية والأزمات الناتجة عنها، وحاولت الحد من أضرارها وتخفيف معاناة الناس، وذلك

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور (٤/ ١٠٧ - ١٠٨).

(٢) ابن إياس: المصدر السابق (٤/ ١٠٧).

(٣) ابن إياس: السابق (٤/ ٢٥٨). وسبق تعريف مصطلح «رأس نوبة النوب».

باتخاذ إجراءات متعددة، كالتعويضات، وإعادة إعمار ما دمرته الكوارث، كالزلازل، والسيول، والفيضانات، وفي أوقات القحط والغلاء، والمجاعات، والأوبئة، والآفات.

وحسب الدراسات الحديثة التي تناولت الكوارث الطبيعية والأوبئة التي وقعت خلال العصر المملوكي، في مصر والشام علي حد سواء، تمدنا المصادر بمعلومات وفيرة عن الإجراءات التي قامت بها الدولة لمعالجة الآثار والأضرار الناجمة عن هذه الكوارث بوجه عام(١).

وفيما يتعلق بإجراءات الدولة لمعالجة الآثار الناتجة عن حرائق القاهرة فالمعلومات الواردة عنها في المصادر – حسب ما توفر لدينا- شحيحة، علي الرغم من وفرتها - إلي حد ما – بشأن بلاد الشام(٢).

---

(١) من الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، وخصصت صفحات لعرض دور الدولة المملوكية في معالجة آثار الكوارث: «الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر: ٤٩١- ٩٢٣هـ/ ١٠٩٧– ١٥١٧م»، رسالة ماجستير (٢٠٠٩م)، إعداد: محمد حمزة محمد صلاح، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة. ومنها: «الأحوال الصحية والطبية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي» – رسالة ماجستير (٢٠١٢م)، إعداد: محمد عطية أبو هويشل، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة. ومنها : « الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة: ٧٨٤ – ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢ – ١٥١٧م»، إعداد: مبارك محمد الطراونة، بحث منشور بمجلة « المجلة الأردنية للتاريخ والآثار»، المجلد (٤)، العدد (٣) لسنة ٢٠١٠م، (ص٤٦ – ٦١).

(٢) من أمثلة إجراءات الدولة المملوكية في معالجة آثار الحرائق ببلاد الشام: عندما وقع حريق كبير بدمشق (سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) أحرق الكثير من الأسواق، فتم توزيعها في أماكن بديلة إلىٰ حين إعادة بناء ما احترق منها، واستغرق ذلك عامين حتىٰ عاد أصحاب الحوانيت إلىٰ أسواقهم (الذهبي: تاريخ الإسلام ٥١/ ٧ – ٨). وقام الملك الناصر محمد بن قلاوون بعمارة مائتين وخمسين حانوتًا (دكانًا) احترقت في حماه عام ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م (تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٤٤). وفي (سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م) تعرضت المنارة الشرقية في الجامع الأموي إلىٰ أضرار كبيرة نتيجة احتراقها، فشرع نائب السلطان الأمير تَنكِز بتجديد بنائها، كما قام بإعمار الأسواق التي احترقت بجوار الجامع (المقريزي: السلوك ج٢ ق٢ ص ٤٩٧). وقام كُمُشبُغا الحموي- نائب حلب- بترميم جسر قلعة حلب بعد احتراقه علىٰ أيدي مماليك منطاش عند محاصرتهم القلعة سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م (المقريزي: السلوك ج٣ ق٢ ص ٧١٧-٧١٨). وتم إعادة بناء بعض مواضع من الجامع الأموي بعد حريقه (عام٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م) (تاريخ البصروي ص٩١). وعندما

وقد سبقت الإشارة إلي حريق القاهرة (سنة٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م) الذي اتهم به جماعة من الأقباط، فألزمهم السلطان بيبرس بأن يقوموا بإصلاح وإعادة إعمار ما أفسدوه بالحريق، مع دفع خمسين ألف دينار لخزانة الدولة(١).

واهتم السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأمراؤه في تجديد ما تهدَّم، وعمارة ما تخرَّب واحترق في حرائق القاهرة (سنة٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، «حتىٰ تراجعت العمارة كما كانت وازدادت»(٢).

ولما اشتعل حريق البُنْدقانيين بالقاهرة، وأتي الحريق عليها بأسرها (سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) قام الأمير «سيف الدين بهادر الطواشي» (مقدّم المماليك السلطانية) في عهد الملك الظاهر بإعمار مواضع منها، وبني فيها داره بعد (سنة٧٨٥هـ / ١٣٨٣م)(٣). وبهادر هذا كان من مماليك الأمير «يلبغا»، وأقام في تقدمة المماليك جميع الأيام الظاهرية، وكَثُرَ ماله، وطال عمره حتىٰ هرم، ومات في أيام الملك الناصر فرج، وهو علي وظيفته «مقدم المماليك السلطانية»، يوم الأحد ١٧ رجب سنة ٨٠٢هـ/ ١٣ مارس ١٤٠٠م(٤).

وفي (عام٧٣٠هـ/ ١٣٩٢م) احترقت الكنيسة المعلقة (الملكية) في القاهرة، فقام الأقباط بعمارتها من جديد، بعد أن أذن لهم القاضي جلال الدين القزويني قاضي الديار المصرية، في الفترة الثالثة من حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ – ٧٤١هـ/ ١٣٠٩ – ١٣٤١م)(٥).

احترقت المدرسة الجوزية بدمشق (عام٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) قام القاضي شمس الدين النابلسي بإعادة عمارتها (النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٤٨). وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة.

(١) المقريزي: الخطط (٣/ ١٥)، الذهبي: تاريخ الإسلام (٤٨/ ١٧).

(٢) علي مبارك: الخطط التوفيقية (١/ ٩٨).

(٣) المقريزي: الخطط (٣/ ١٦).

(٤) المقريزي: المصدر السابق (٣/ ١٣٥).

(٥) المقريزي: السلوك (ج٢ ق٢ ص٣٢٠)، ابن حجر: إنباء الغمر (٤/ ١٨٦ – ١٧٨).

وقد استمرّ أكثر منطقة البندقانيين خرابـًا بعد احتراقها بالكامل في الحريق الهائل الذي وقع في عدة مناطق بالقاهرة (سنة٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) - إلىٰ أن جاء الأمير «يونس النوروزيّ» (دوادار الملك الظاهر برقوق)، سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م، وقام بإعمار جزء منها، وهو الرَّبعُ المجاور لبئر الدلاء التي كانت تعرف ببئر زويلة، فأنشأ عددًا من الحوانيت، والرباع، والقيساريات، بجوار «درب الأنجب»، وبني فوقها عدة مساكن. وأنشأ في هذه المنطقة كذلك سوق «الأخفافيين» الذي يباع فيه خفاف النساء ونعالهنَّ[١]. ثم أنشأ الأمير شهاب الدين أحمد الحاجب (ابن أخت الأمير جمال الدين يوسف الأستادار) داره بجوار «حمام ابن عبود»، واتصل ظهرها بدكاكين البندقانيين، فصار فيها ما كان من خراب الحريق هناك، حيث الحوض الذي أنشأه تجاه دار بيبرس[٢].

وأشار المقريزي (المتوفى٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) إلي أنه شاهد الإعمار الذي تم في منطقة البندقانيين بعد خرابها في الحريق، حيث أدرك عدّة كثيرة من الحوانيت التي يباع فيها الفقاع، تبلغ نحو العشرين حانوتـًا، ووصفها بقوله: « كانت من أنزه ما يُرىٰ؛ فإنها كانت كلها مُرَخَّمة بأنواع الرخام الملوّن، وبها مصانع من ماء، تجري إلىٰ فوّارات تقذف بالماء علىٰ ذلك الرخام، حيث كِيزانُ الفقاع مرصوصة، فيُستحسَن منظرُها إلىٰ الغاية، لأنها من الجانبين، والناس يمرُّون بينهما، وكان بهذا الخط عدّة حوانيت لعمل قِسيِّ البندق، وعدَّة حوانيت لرسم أشكال ما يُطرَّز بالذهب والحرير، وقد بقيت من هذه الحوانيت بقايا يسيرة، وهو من أخطاط القاهرة الجسيمة»[٣].

وعقب وقوع الحريق بدار التفاح – ظاهر باب زويلة – في أواخر (شهر المحرم ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م) استمر الناس في نقل مخلفات الحريق ثلاثة أشهر[٤]، وقاموا بإعمار

---

(١) المقريزي: الخطط (٣/ ١٩٠).

(٢) المقريزي: المصدر السابق (٣/ ٦١).

(٣) المقريزي: نفسه، ونفس الجزء والصفحة.

(٤) السخاوي: وجيز الكلام (ص٢٣٨).

ما احترق من الأسواق، حتىٰ أعادوها إلي حالتها التي كانت عليها قبل الحريق[1]. ولا نستبعد – وإن كنا لا نملك دليلا علىٰ ذلك - أن تكون الدولة قد أمدَّت أصحاب هذه الحوانيت بالتعويضات اللازمة، لإعادة بنائها من جديد.

۞ ۞ ۞

(١) المقريزي: السلوك (ج٣ ق١ ص٣٢٨)، ابن حجر: إنباء الغمر (١/ ١٧٠)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة (١١/ ١٦٦).

الخلاصة وأهم النتائج

١- تناولت هذه الدراسة نوعًا من الكوارث التي تعرضت لها مدينة القاهرة في عصر السلاطين المماليك (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م)، فسلطت الضوء علىٰ أحداث الحرائق التي اشتعلت في بعض أحياء المدينة، ومعالمها العمرانية، ومراكزها الاقتصادية. وذلك من ثلاثة جوانب؛ هي أسباب الحرائق، وآثارها علىٰ المنشآت العمرانية، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للسكان، ودور الدولة وعامة السكان في مواجهتها.

٢- كانت الأسباب التي تفسر وقوع هذه الحرائق متنوعة، فمنها الصراعات السياسية التي تقع بين أمراء المماليك، للوصول إلىٰ السلطة والنفوذ، إلي جانب الاضطرابات العنيفة التي يقوم بها مجموعات من «المماليك الجلبان» لنصرة أمرائهم، والقيام بأعمال السلب والنهب، وما ينتج عن ذلك كله من حرق وتخريب للقصور والمنشآت. وقد يعود السبب في اشتعال بعض الحرائق إلىٰ ما يحدث أحيانًا من الفتن الطائفية والتعصب الديني بين بعض الطوائف من المسلمين والأقباط.، كما حدث في سنتي (٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م)، و(٧٢١هـ/ ١٣٢١م). كما اشتعلت بعض الحرائق لأسباب تتعلق بالظواهر الطبيعية (كالصواعق وغيرها)، والأخطاء البشرية.

٣- رصدت الدراسة عددا من الحرائق – يصل إلي(٢١) حريقًا حسب ما توصلنا إليه – صمتت المصادر عن بيان أسبابها، وبعضُها نتج عنها أضرار بالغة التأثير.

٤- كانت المعلومات التي أمدتنا بها المصادر حول حرائق القاهرة المملوكية متفاوتة في حجمها، وأهميتها، فقد تقتصر علىٰ تحديد مكان الحريق، وتاريخه، أو تزيد علىٰ ذلك بذكر شئ من آثار الحريق دون توضيح التفاصيل. وقد تأتي هذه المعلومات بتفصيلات واسعة ودقيقة، وتشرح جهود الدولة والسكان في مكافحة الحريق، وترصد الآثار والأضرار التي خلَّفتها في الممتلكات الخاصة والمرافق العامة، والمنشآت التجارية، والمحاصيل الزراعية.

٥- أكثر الحرائق التي رصدتها المصادر، وأمدتنا عنها بمعلومات ثرية حريقان؛ أحدهما حريق سنة (٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، والآخر حريق سنة (٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م)، حيث كان لهما من الاتساع والانتشار، وتخلف عنهما من الآثار والأضرار ما يفوق الوصف، الأمر الذي دفع الناس إلىٰ الوهم بأن القاهرة قد احترقت بكاملها.

٦- تركت الحرائق التي وقعت في القاهرة إبان عصر المماليك العديد من الأضرار والآثار السلبية في كافة الجوانب، العمرانية، والاقتصادية، والاجتماعية، فقد كانت سبباً رئيسياً في تدمير كثير من المنشآت العمرانية، كالبيوت، والقصور، والأرباع، والأسواق، والحوانيت، والقيساريات، وعدد من المدارس، والمساجد، والكنائس، إضافة إلي العديد من ممتلكات الدولة ومؤسساتها، وأكثرها يتعلق بمنشآت قلعة الجبل مركز الحكم في العصر المملوكي، كبعض الأبراج، والخزائن الخاصة، وخزائن السلاح المعروفة بالزَّرْدَخاناه، والدُّور، والاصطبلات السلطانية.

٧- تعرضت بعض أبواب القاهرة وأجزاء من أسوارها للحريق في فترات الاضطرابات السياسية التي كانت تقع عادة بين الأمراء، من أجل الصراع علىٰ السلطة وفرض النفوذ.

٨- كان لبعض هذه الحرائق من القوة والانتشار بحيث دمرت أحياءً كاملة، وأزالت معالم عمرانية متلاصقة، بما تحتويه من مساكن، وأرباع، وأسواق، ومرافق عامة.

٩- تعرض كثير من بيوت الخاصة – من الأمراء، وكبار رجال الدولة، وكبار التجار - للاحتراق، جزئيًا، أو كليا، في الحرائق الكبرىٰ، وفي فترات الفتن والصراعات السياسية بين كبار الأمراء وأتباعهم من المماليك، بغرض الضغط علي الخصوم وإلحاق الهزيمة بهم، وكذلك في أوقات الاضطرابات وعمليات النهب والحرق التي قام بها «المماليك الجلبان».

١٠- أثرت هذه الحرائق علي الأوضاع الاقتصادية، والحياة المعيشية، نتيجة تضرر بعض المنشآت التجارية، والصناعية، والمحاصيل الزراعية، وإتلاف كثير من

الأموال والممتلكات، ووقوع حالات من السلب والنهب، وتحوُّل المتضررين بالحريق إلي الفاقة والفقر، بفَقْد أموالهم، واحتراق متاجرهم وبيوتهم.

١١- تعرضت الأسواق والحوانيت والمراكز التجارية العامة – كالفنادق، والقيساريات، ومخازن السلع - لحرائق كبرىٰ، بما تحتويه من أنواع الحِرَف، والبضائع، والمحاصيل الزراعية، والسلع المتنوعة، وكانت بعض الحرائق من القوة والامتداد بحيث دمرت أسواقًا ومراكز تجارية كاملة، حتىٰ أصبحت أثرًا بعد عين.

١٢- كان لانتشار صناعة البارود بالقاهرة في أواخر العصر المملوكي – وخطورة تلك المادة - دور في احتراق أماكن صنعها، المسماه بالزُّردخاناه، وموت عدد من صناع البارود في تلك الحرائق. وتُعدُّ وفاة هؤلاء الصناع المتخصصين، وتعرُّض منشآت التصنيع العسكرية للاحتراق خسارة كبيرة، بشرية، ومادية، في مجال الصناعات العسكرية الخاصة بالدولة.

١٣- كان حجم الخسائر الاقتصادية التي تنتج عن الحرائق يختلف باختلاف حجم الحريق، وما احترق فيه، فإذا كان الحريق كبيرا تكون الخسائر كبيرة أيضًا، مما يؤدي إلي شح البضائع، وارتفاع الأسعار، وضياع للجهد والمال، ويؤدي كذلك إلىٰ زيادة معدل الفقر والبطالة لدي قطاعات من السكان، ممن احترقت ممتلكاتهم، وبيوتهم.

١٤- كان لبعض الحرائق تأثير مباشر علي حياة الناس الاجتماعية، حيث أدت إلي موت الكثيرين، وانتشار الخوف والهلع في النفوس، وهجران البيوت، والهرب إلي الميادين، والشوارع، والاحتماء بالمساجد، والنزوح إلي أماكن آمنة، إلىٰ حين إعادة إعمار بيوتهم.

١٥- كانت الجهود الكبيرة التي يبذلها السكان في عمليات إطفاء الحرائق، تمثل جانبًا من المعاناة الشديدة التي يعيشونها أثناء الحرائق وبعدها، وربما تمتد هذه المعاناة عدة شهور إذا تركت الحرائق آثاراً تدميرية كبيرة في الممتلكات والمنشآت.

١٦- تسببت الحرائق الكبرىٰ في غلاء أسعار السلع والمنتجات. إما لتلف كميات كبيرة من السلع في الحريق، ومن ثَمَّ يرتفع ثمنها، وإما لحاجة الناس إلي بعض الأدوات والوسائل التي يقبلون علي شرائها في أوقات الحريق، أو بعده. وكان ذلك من صور المعاناة التي تضرَّرَ منها الناس في حياتهم المعيشية والاجتماعية في أوقات الحرائق، والفترات التي تعقبها.

١٧- كان لبعض الحرائق تأثير مباشر في وقوع الفتن الطائفية، وإحداث حالة من الفوضىٰ، وعدم الاستقرار، وانعدام الأمن في مجتمع القاهرة، كما حدث أثناء حريقي القاهرة (سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م)، و(٧٢١هـ/ ١٣٢١م).

١٨- تعرضت كثير من البيوت، والحوانيت، وبعض المنشآت العامة، لحالات من النهب والسلب، أثناء اندلاع الحرائق، مما كان يعود بالضرر الشديد علىٰ السكان في حياتهم المعيشية، واستقرارهم الاجتماعي، علىٰ الرغم من الجهود التي بذلها رجال الدولة المشرفون علىٰ عمليات الإطفاء، لمنع النهب والاعتداء علىٰ البيوت، والممتلكات، والمنشآت.

١٩- تركت بعض الحرائق في المناطق التي اشتعلت فيها آثارًا من التلوث البيئي، بقيت مدة طويلة من الزمن، وصارت كالمتفرجات، يرتادها الناس لمشاهدتها، وأصاب البيوت، والمنشآت، والأسواق، والأحياء، ألوانٌ من التشوهات، بسبب ما لحق بها من الحرائق، وما حدث لها من الهدم والإزالة، للسيطرة علىٰ النيران.

٢٠- رصدت المصادر جانبًا مما كان يحدث بين السكان؛ من مواساة بعضِهم بعضًا عن مصابهم بالحرائق، تخفيفا من حجم الكارثة. وربما قدَّم البعض صورًا من العون المادي لأصحاب الحريق، تعويضًا لهم عن الخسائر التي لحقت بهم.

٢١- تعاملت الدولة المملوكية مع الحرائق التي وقعت في القاهرة وضواحيها بكل جدية ومسؤولية، في حدود الإمكانيات المتاحة في ذلك العصر، فقد حاولت اتخاذ الإجراءات الممكنة للوقاية من الحريق، قبل وقوعه. كما حاولت – ممثلة في كبار مسئوليها – مكافحة الحريق عند وقوعه، وتوظيف الإمكانيات والطاقات

المتاحة للسيطرة عليه، وإطفائه في أسرع وقت ممكن، ثم معالجة آثاره الناجمة عنه، من دمار وخراب، والحد من أضراره، وتخفيف معاناة الناس، عبر قيامها بإجراءات متعددة، كإعادة ما أتلفته الحرائق، وإعمار المناطق المتضررة، وتقديم التعويضات اللازمة.

٢٢- من الإجراءات التي اتخذتها الدولة للوقاية من الحريق قبل وقوعه تخزين المياه وتوفيرها، بالقرب من بعض الأماكن المهمة، والمهددة أكثر من غيرها بخطر الحريق، حيث كانت المياه هي الوسيلة الأساسية التي تُستخدم في إطفاء الحرائق.

٢٣- اتخذت الدولة المملوكية عددًا من الإجراءات الأمنية قبل وقوع الحرائق وعند وقوعها، للتقليل من خسائرها، كالدوريات التي يقوم بها العَسَس (الشرطة) علىٰ أبواب الدروب والحارات، والمناداة بمنع مبيت الغرباء في القاهرة في الأوقات التي تكثر فيها الحرائق، لمحاولة الوصول إلىٰ الجناة الحقيقيين، والقبض علىٰ المشتبه فيهم، ومنع «النَّهابة» من ممارسة السلب والنهب أثناء اندلاع الحرائق، للحفاظ علىٰ الممتلكات العامة والخاصة.

٢٤- رصدت المصادر عددًا من المواقف تُظهر حالة الانتباه الشديدة التي تحلَّىٰ بها المسئولون عن الأمن وعامة الناس عند اشتعال الحرائق المفتعلة، بحيث توصلوا- بحسِّهم الأمني- إلىٰ معرفة المشتبه بهم في إشعال تلك الحرائق، ومن ثَمَّ القبض عليهم، الأمر الذي ساعد علىٰ توقف الحرائق المفتعلة، أو الحد من انتشارها.

٢٥- كانت أعمال النهب والسلب تقع أثناء الحرائق الكبرىٰ، وكان «النهَّابة» يستغلون انشغال الناس بالإطفاء، فيقومون بسرقة البيوت والمتاجر، خصوصا تلك التي يفر منها أصحابها نجاةً بأنفسهم. وقد حرص المسئولون الذين يشرفون علىٰ إطفاء الحريق علىٰ تأمين هذه الممتلكات وحمايتها من أعمال النهب والسرقة.

٢٦- حرص السلاطين المماليك ومساعدوهم من كبار رجال الدولة علىٰ استخدام الحجارة في تشييد المباني، لاسيما المنشآت العامة، كالمساجد، والمدارس، والبيمارستانات، والأسوار، والقلاع، والقصور، وغيرها، حيث تتميز الحجارة

بالصمود أمام الحرائق لمدة طويلة، وتمنع انتشارها إلىٰ أماكن أخرىٰ. وكـان هـذا مـن الإجراءات الوقائية التي كانت تُتخذ لمقاومة الحرائق.

٢٧- كان دور الدولة المملوكية - ممثلا في السلاطين، وكبار الأمراء، ومساعديهم من المماليك - مهمًا وفعَّالاً بشكل كبير، في الإشراف علىٰ عمليات إطفاء الحرائق التي شهدتها القاهرة، بل والمشاركة بأنفسهم في إطفائها، والسيطرة عليها، إضافة إلىٰ تأمين أماكنها والمناطق المجاورة لها.

٢٨- انحصرت مهمة الملوك والسلاطين - غالبا - في إصدار الأوامر إلي الوزراء والأمراء، لمتابعة عمليات الإطفاء والإشراف عليها. وفي قليل من الأحيان يشارك السلطان بنفسه في عمليات الإطفاء.

٢٩- بذل كبار رجال الدولة - من الولاة والوزراء، والأمراء، ومعهم أتباعهم من المماليك - جهودا مهمة في الإشراف علي إطفاء الحرائق والسيطرة عليها، وكانوا يتوجهون إلي أماكن وقوعها بمجرد اشتعالها. وكلَّما زاد حجم الحريق وخطورته زاد عدد الأمراء والمماليك المشاركين، وربما يتم استنفار كافة الأمراء والمماليك لمواجهة بعض الحرائق الكبرىٰ.

٣٠- كان لأصحاب المهن دور كبير في إطفاء الكثير من الحرائق، وفي مقدمتهم «السقَّاؤون»، الذين كان يُستعان بهم في عمليات الإطفاء بحكم مهنتهم. كما استعان المسئولون في الدولة بأصحاب بعض المهن الأخرىٰ في عمليات الإطفاء، كالنجَّارين، والهدَّامين، والحجَّارين، والفَعَلة. وينحصر دور هؤلاء المِهَنيين في السيطرة علي الحريق بهدم بعض البيوت، لكي لا يمتد إلي مساحات أوسع.

٣١- انحصرت الطرق المتاحة لإطفاء الحرائق التي وقعت في القاهرة خلال العصر المملوكي في طريقتين؛ الأولي: غمر مكان الحريق بكميات كبيرة من المياه، حيث كان الإطفاء بالماء هو الوسيلة المتاحة والأفضل بطبيعة الحال، لإخماد الحرائق والسيطرة عليها. والطريقة الثانية: محاصرة الحريق بالهدم، لوقف انتشاره وامتداده إلي أماكن أخري، وعزله عن الوصول إليها.

٣٢- اهتم سلاطين المماليك، وكبار مساعديهم، بالتحقيق في أسباب وقوع الحرائق، وإصدار العقوبات المناسبة في حق المتسببين فيها، كإلزامهم بإصلاح وإعادة إعمار ما أفسدوه بالحريق، أو دفع قدر من المال لخزانة الدولة.

٣٣- اهتمت الدولة المملوكية بمعالجة الآثار الناتجة عن حرائق القاهرة، بتجديد ما تهدَّم، وعمارة ما تخرَّب واحترق. وقد يقوم التجار بإعمار ما احترق من الأسواق. ولا نستبعد – وإن كنا لا نملك دليلا علىٰ ذلك – أن تكون الدولة قد أمدَّت أصحاب هذه الحوانيت بالتعويضات اللازمة، لإعادة بنائها من جديد.

٣٤- ومن المؤكد أن عمليات إزالة مخلفات الحرائق، وإعادة إعمار المنشآت والمناطق المحترقة، ومحاولة الدولة توفير التعويضات للمتضررين من الحرائق كانت تحتاج إلىٰ توفير الأموال اللازمة، وزيادة معدل الإنفاق.

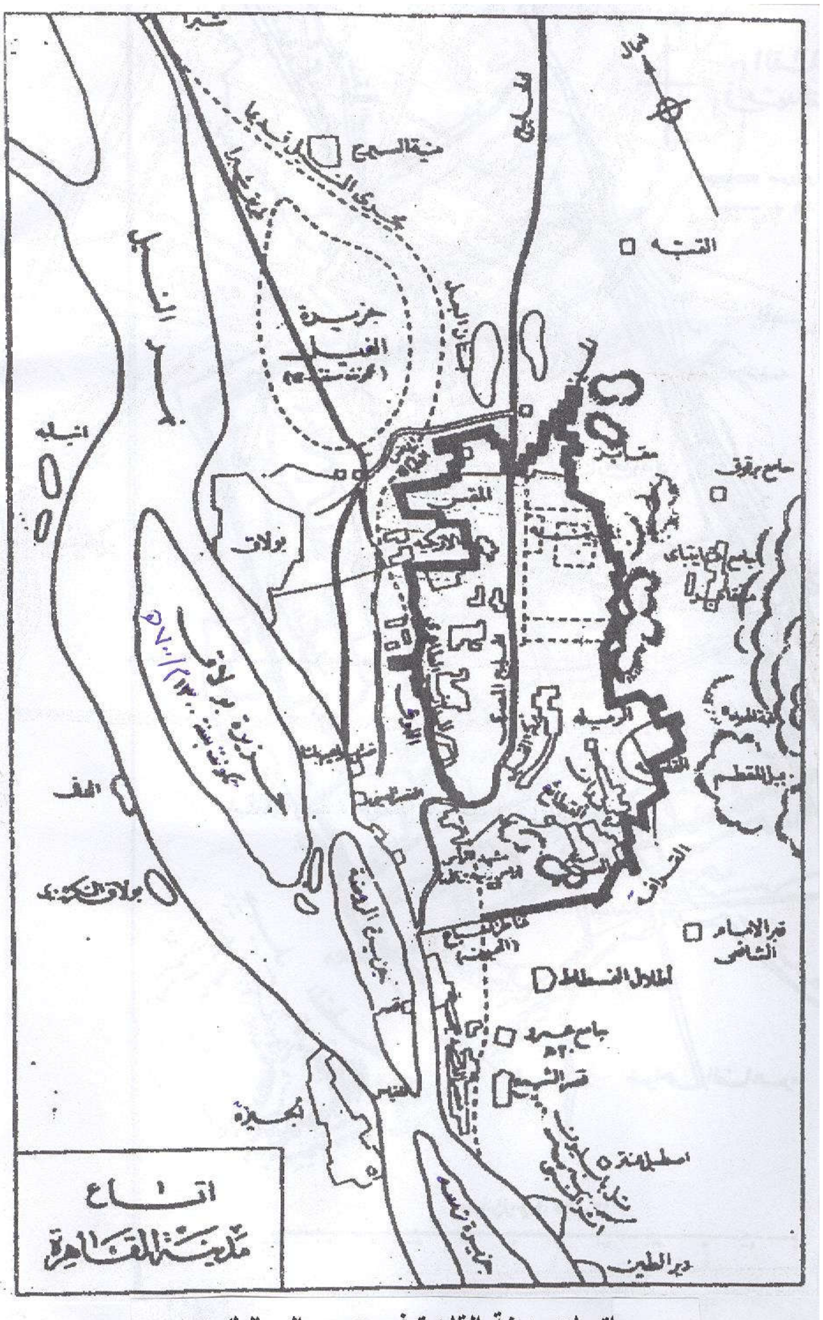

اتساع مدينة القاهرة فى عصر المماليك

عبد الرحمن زكي: القاهرة تاريخها وآثارها (ص١٥٥)

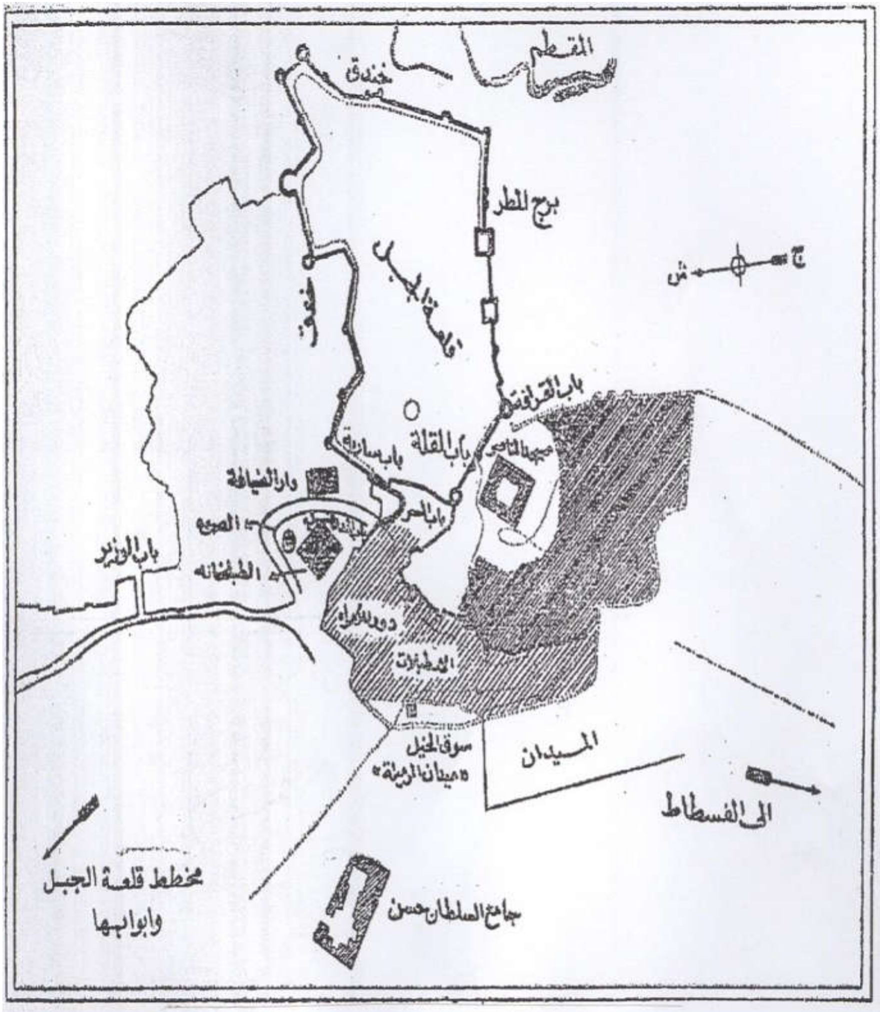

مخطط قلعة الجبل وأبوابها

عبد الرحمن زكي: القاهرة تاريخها وآثارها (ص١٠٣)

قائمة المصادر والمراجع [1]

أولا: المصادر:

* ابن أيبك الدواداري: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري (ت بعد ٧٣٦هـ/ ١٤٣٢م):

١- **كنز الدرر وجامع الغرر** (ج٩: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر- الأحداث من ٦٩٨ إلىٰ ٧٣٥هـ)، نشر وتحقيق: هانس روبرت رويمر، القاهرة ١٩٦٠م.

* البصروي: علي بن يوسف بن علي بن أحمد، علاء الدين الدمشقيّ العاتكي الشافعي الشهير بالبصروي (ت ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م):

٢- **تاريخ البصروي** – ط: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨هـ تحقيق: أكرم حسن العلبي.

* ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):

٣- **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب** الأسفار – ط: القاهرة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، سلسلة كتاب التحرير.

* البلوي: أبو البقاء خالد بن عيسىٰ بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد، البلوي (ت بعد ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م):

٤- **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق** - تحقيق الحسن بن محمد السايح، ط: مطبعة فضالة المحمدية، المملكة المغربية، ١٩٦٠م.

* ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفي٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م):

٥- **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور** – ط: وزارة الأوقاف، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٦- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – ط: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر(د. ت).

---

(١) قمت بترتيب القائمة هجائيًّا، بدءًا بالمصادر، بحسب لقب المؤلف وشهرته، مع مراعاة إسقاط (ابن) و(أبو) و(ال)، ثم تأتي المراجع الحديثة علىٰ حسب الاسم الأول والثاني.

٧- **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي** - ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ج١، ج٢: تحقيق د. محمد محمد أمين، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ١٩٨٤م). (ج٣، ج٥: تحقيق د. نبيل محمد عبد العزيز ١٩٨٥، ١٩٨٨م). (ج٦: تحقيق د. محمد محمد أمين ١٩٩٠م).

* ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب، أبو محمد، بدر الدين الحلبي (ت٧٧٩هـ / ١٣٧٧م):

٨- **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه** – ط: وزارة الثقافة، والهيئة المصرية العامة للكتاب، ج١: ١٩٧٦م – ج٢: ١٩٨٢م – ج٣: ١٩٨٦م)، تحقيق محمد محمد أمين.

* ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م):

٩- **إنباء الغمر بأبناء العمر** – ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، تحقبق د حسن حبشي .

١٠- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** – ط: دار الكتب الحديثة، عابدين، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م، تحقيق: محمد سيد جاد الحق.

* ابن دقماق: إبراهيم ين محمد بن أيدمر، العلائي، الحنفي، صارم الدين، الشهير بابن دقماق (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م):

١١- **الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين** – (ج٢) ط: عالم الكتب، بيروت ١٩٨٥م، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي.

١٢- **نزهة الأنام في تاريخ الإسلام (٦٢٨ – ٦٥٩هـ)** -- ط: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى١٤٢٠ه/ ١٩٩٩م، دراسة وتحقيق د. سمير طبَّارة.

١٣- **النفحة المسكية في الدولة التركية** – ط: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٩٩٩م، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري.

* الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):

١٤- **تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام** – ط: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري (ج٤٨: الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، (ج٥١: الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

١٥- **سير أعلام النبلاء** - ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (ج١٩: الطبعة الحادية عشرة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، تحقيق شعيب الأرنؤوط)، (ج٢١: الطبعة الأولي ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥مـ ، تحقيق د. بشار عواد).

* السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م):

١٦- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** – ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (د. ت).

١٧- **وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام** – ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان (د. ت) تحقيق د. بشار عواد معروف، وآخرين.

* السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م):

١٨- **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة** – ط: دار إحياء الكتب العربية، عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه، مصر، الطبعة الأولىٰ ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

* ابن شاكر الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن، الكتبي، الداراني الدمشقي (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م):

١٩- **فوات الوفيات** – ط: دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ، تحقيق إحسان عباس.

* ابن شاهين الظاهري: زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين، الظاهري، الحنفي (ت٩٢٠هـ/ ١٥١٤م):

٢٠- **نيل الأمل في ذيل الدول** – ط: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، تحقيق أ. د. عمر عبد السلام تدمري.

* الصفدي (صلاح الدين): خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م):

٢١- **الوافي بالوفيات** – ط: دار إحياء التراث، بيروت١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفىٰ.

* الصفدي (العباسي): الحسن بن أبي محمد عبد الله الهاشمي العباسي الصفدي (ت بُعيد ٧١٧هـ/ ١٣١٧م):

٢٢- **نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك** – تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري – ط: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولي ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

* ابن الصيرفي: علي بن داود بن إبراهيم، نور الدين الجواهري، المصري، الحنفي، المعروف بابن الصيرفي (ت٩٠٠هـ/ ١١٥٠م):

٢٣- **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان** – ط: منشورات وزارة الثقافة- مركز تحقيق التراث، مطبعة الكتب المصرية، ١٩٧٠م، تحقيق د. حسن حبشي.

* ابن العماد العكبري: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفىٰ: ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨):

٢٤- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** – ط: دار ابن كثير، دمشق، بيروت الطبعة الأولىٰ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، حققه محمود الأرناؤوط، وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط.

* العيني: محمود بن أحمد بن موسىٰ بن أحمد، أبو محمد، بدر الدين العيني، الحنفي (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م):

٢٥- **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان** – ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م، تحقيق محمد محمد أمين.

* ابن فضل الله العُمري: أحمد بن يحيىٰ بن فضل الله، القرشي، شهاب الدين (ت٧٤٩ه؟ـ/ ١٣٤٩م):

٢٦- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن) – حققها د. أيمن فؤاد سيد – ط: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٥م.

* القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، القلقشندي، القاهري (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م):

٢٧- **مآثر الإنافة في معالم الخلافة** – ط: مطبعة حكومة الكويت، الطبعة الثانية ١٩٨٥م، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج.

٢٨- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** – ط: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.

* ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن كثير، الدمشقي (المتوفي٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م):

٢٩- **البداية والنهاية** – ط: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه علي شيري.

* المقريزي: أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م):

٣٠- **السلوك لمعرفة دول الملوك** (ج١، ج٢ كل منهما ثلاثة أقسام، ط: القاهرة، بعناية د. محمد مصطفي زيادة، بدون ذكر بيانات الطباعة والنشر)، و(ج٣، ج٤ كل منهما ثلاثة أقسام، ط: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٧٠ -١٩٧٣م تحقيق أ.د. عبد الفتاح عاشور).

٣١- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** – ط: دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولىٰ ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٣٢- **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا** – ط: المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية، القاهرة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م، بتحقيق. د. محمد حلمي محمد احمد.

* النعيمي: عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد النعيمي، الدمشقي (ت٩٢٧هـ/ ١٥٢١م):

٣٣- **الدارس في تاريخ المدارس** – ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، تحقيق إبراهيم شمس الدين.

* النويري: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم، القرشي، التيمي البكري، شهاب الدين النويري (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م):

٣٤- **نهاية الأرب في فنون الأدب** - (ج٣١) تحقيق: نجيب مصطفي فوَّاز، وحكمت كشلي فواز)، (ج٣٣: تحقيق: إبراهيم شمس الدين) - ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

* ابن الوردي: زين الدين عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):

٣٥- **تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردي** – منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

* اليافعي: عبد الله بن أسعد بن علي، اليافعي، عفيف الدين، اليمني، المكي (ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م):

٣٦- **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان** – ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

* اليونيني: قطب الدين أبو الفتح، موسىٰ بن محمد اليونيني (٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م):

٣٧- **ذيل مرآة الزمان** – ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، بعناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية.

ثانيا: المراجع الحديثة:

* آرنولد توينبي:

٣٨- **الدعوة إلى الإسلام** - ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، ط: القاهرة ١٩٥٧م.

* إبراهيم العدوي (دكتور):
٣٩- **نظام المواطنة في الإسلام ومنجزاته للحضارة العربية** (مجموعة بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية)، ط: القاهرة ١٩٨٣م.
* إبراهيم حسن سعيد:
٤٠- **الجيش في عصر المماليك** – رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٨م. إشراف أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور.
* أحمد عبد الرازق أحمد:
٤١- **البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك** – ط: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٧٩م.
* أنور محمود زناتي:
٤٢- **معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية** – ط: دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولي ٢٠١١م.
* إيمان مصطفي عبد العظيم:
٤٣- **العربان في مصر بين الاعتداء والولاء زمن المماليك الجراكسة** (٧٨٤-٩٢٣هـ/ ٣١٨٢ - ١٥١٧م - بحث منشور بحوليات آداب عين شمس، المجلد ٤٠، أكتوبر، ديسمبر ٢٠١٢م، (ص ٤١٩ –٤٧٣).
* ترتون:
٤٤- **أهل الذمة في الإسلام** – ترجمة د. حسن حبشي، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م.
* حسن حلاق، وعباس صباغ:
٤٥- **معجم الألفاظ التاريخية الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية** – ط: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
* ستانلي ليبول:
٤٦- **سيرة القاهرة**، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. علي إبراهيم حسن، وإدوار حليم – ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، سلسلة الأعمال الفكرية، ١٩٩٧م.

* سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):
٤٧- **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك** - ط: دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٧م.
* سيدة الكاشف (دكتور):
٤٨- **مصر الإسلامية وأهل الذمة** - ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ١٩٩٣م.
* عباس الطرابيلي:
٤٩- **أحياء القاهرة المحروسة** (خطط الطرابيلي) - ط: الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثانية ٢٠٠٣م، سلسلة مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع، الأعمال الخاصة.
* عبد الرحمن زكي:
٥٠- **القاهرة تاريخها وآثارها: من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ** - ط: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
٥١- **ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية في ضوء ما كتبه في كتاب بدائع الزهور** (ضمن كتاب «ابن إياس: دراسات وبحوث»، وهو محاضرات ألقيت في الندوة التي نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون الآداب والعلوم الاجتماعية، ديسمبر ١٩٧٣م، إشراف: أحمد عزت عبد الكريم) - ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.
*عبد العال الشامي:
٥٢- **جغرافية المدن عند العرب** - ط: سلسلة كتاب عالم الفكر، الكويت ١٩٨٧م.
* عبد المجيد دياب (دكتور):
٥٣- **تاريخ الأقباط** - ط: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
* عبد المنعم ماجد (دكتور):
٥٤- **نُظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر** - ط: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٢م.

* عثمان علي محمد عطا (دكتور):

٥٥- **الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي** – سلسلة: تاريخ المصريين (رقم٢١٣)، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م.

* علاء طه رزق (دكتور):

٥٦- **السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك** – ط: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، الجيزة، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

* علي مبارك:

٥٧- **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة** – ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، سلسلة التراث ٢٠٠٨م.

* قاسم عبده قاسم (دكتور):

٥٨- **أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك: دراسة وثائقية** – ط: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٥٩- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي: عصر سلاطين المماليك – ط: دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

٦٠- **بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك** (ضمن موسوعة: الحضارة العربية) – العدد ١٦، المعارف، سوسة، تونس، ١٩٩٤م.

* محمد أحمد دهمان (دكتور):

٦١- **معجم المصطلحات التاريخية في العصر المملوكي** – ط: دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان ، ودار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولىٰ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

* محمد سيد كامل:

٦٢- **النصارى والنشاط الاقتصادي في مصر الفاطمية في ضوء أوراق البردي العربية** – بحث منشور بمجلة المؤرخ العربي، يصدرها اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، العدد (١٥) مارس ٢٠٠٧م.

* ناريمان عبد الكريم:

٦٣- **معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية** - ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مكتبة الأسرة، ١٩٩٧م.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

٦٤-

– Butcher Mrs (L.e.): The story of Church of Egypt. 2 vols. London 1897.